الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران - السانية -

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية.

قسم الحضارة الإسلامية

أَساليبُ القرآنِ في محاجة أَهلِ الكتاب

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات القرآنية

إعداد الطالب:

بلحاج جلول

إشراف:

الدكتور: العربي قلايلية

الموسم الجامعي: 1426 - 1427هـ / 2005 - 2006


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون).

صدق الله العظيم

الآية 46 سورة العنكبوت

إهـداء:

أهدي هذا العمل المتواضع إلى :

- الوالدين الكريمين جزاء الصبر .

- الإخوة والأخوات ابتغاء الأجر .

- إلى الابن زين العابدين .

- إلى كل من علمنا أو سار معنا يدعو إلى الله على بصيرة وهدى .

كلمة شكر وامتنان :

يحتم علي واجب الشكر، وعنوان المروءة أن أذكُر باليد البيضاء، وبجل العون الممدود للسيد المشرف الدكتور العربي قلايلية؛ على ما أبداه من حسن التوجيه، وجدية الملاحظة، وجميل التفهم . الأمر الذي كان له جميل الأثر في إتمام البحث، وظهوره على هذه الهيئة التي يرضاها الباحث في نهاية التحليل، ويطلب لها التكميل، بما يوجه إليها من ملاحظات وانتقادات .

كما أعبر عن كامل إمتناني لكل من أسهم في إنجاز هذا البحث؛ بإعارة كتب أو مقالات أو محاورة فكرية أو تشجيع معنوي . .

كما أوسع بالرحمات ودعاء المثوبة أرواح كل من علمني، منذ أيام الطلب الأولى وإلى يوم الناس هذا، في إحدى ثمرات ذلك التعليم وتلك المسيرة ، وأخص من أولئك روح المرحوم السيد محمد بلكبير شيخ مدرسة العلم والعمل بأدرار .

مقـدمة :

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، و لم يكن له شريك في الملك،وكبره تكبيرا. الموصوف بكل كمال ، والمتره عن كل نقص صغيرا كان أو كبيرا.والصلاة والسلام على نبي الله المصطفى، وحبيبه المجتبى. الذي صدع بالحق في وجه من خالفه فكان له نذيرا، وعلى آله والصحابة والتابعين سلاما تاما، أبدا كثيرا. وبعد؛

فإن الله سبحانه تعالى قد بعث أنبياءه العظام، و رسله الكرام، يصدق بعضهم بعضا، بالمحجة الواضحة، والحجة الدامغة، أرسلهم إلى أقوامهم، يردونهم إلى مهيع الحق -كلما انحرفوا - عنه بلطف الهداية، وحسم المعجزات. وختمهم بإمامهم إذا اجتمعوا: محمد ﷺ ، فأرسله إلى الأحمر والأبيض ، ممن لا دين له ومن له دين ، ف كان أن أبطل ببعثته ﷺ ما كان قبله من إتباع الأديان، فلم يرتض لأهل الأرض دينا غير الإسلام (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الآية 58 سورة آل عمران . فطفق يحاجج من تأبى على الإسلام من الأحبار والرهبان، وعموم من دان باليهودية والنصرانية، حتى ألزمهم ما كانوا ينكرونه من الحق فلم يترك لهم من الأمر مخرجا .وقد جاء ذلك كله مسطورا في كتاب الله بأوضح برهان، ومزبورا فيه بأبلغ بيان.

وإذا كان الحوار الجاد بين أتباع الأديان السماوية أمرا ضروريا في كل زمن، فهو اليوم أشد ضرورة ؛لما أصاب إنسان العصر من ضياع الهدف، وضلال الوجهة ، والتعصب للأهواء والأفكار .. فنحن نرى أن القرآن الكريم قد حمل البذور الحقيقية لمثل هذا الحوار الجاد والبناء، والذي من شأنه أن ينصف الأطراف المتخالفة ،كلما صدقت نفسَها في طلب الحق ،وتبصر الصواب . إذ إضافة إلى احتكامه إلى المنهج العلمي المطلوب، يسلك القرآن مسلك المسؤولية عن الحقائق الدينية الكبرى، فيبرزها خوف تغيرها وتبدلها،و يحمل بواضح البرهان،والحجة الدامغة، والشدة في الحق على ما حل محلها من مرذول الأفكار الوضعية، و شاذ الفلسفات البشرية، التي كدرت رونق الدين الحق ، وسمحت للعقول البشرية -بدل تقبله والدعوة إليه - بأن تهاجمه وأفكاره ، وتفضل عليه هذه المذاهب في الاعتقاد و ساعة الاحتكام.

هكذا وبعيدا عن التحامل والمراء، والتعصب إلا للحق،وتحت شعار (ولا تُجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم) يمعن القرآن في حوار جاد ؛ بملاحظة المتفق عليه حينا، والمختلف فيه أحيانا. كل ذلك بأسلوب واضح ودقيق ؛كان النواة الأولى للفكر الإسلامي، وهو يرد على أتباع الديانتين ، بل قد استفاد عموم المسلمين منه لبساطته ووضوحه،وحسمه في كبريات القضايا.

إن مهمة هذا البحث هي التطرق إلى معظم ذلك؛ رغبة في الكشف عن هذا المنهج الرباني الواضح، في إلزام البشر - والمبطلين منهم على وجه الخصوص- الحق إما أن يعتنقوه، أو يكفوا عن التشغيب عليه ولو في ظاهر الأمر.وكيف صيغ ذلك كله في أسلوب بياني يدعم الحجة،ويبرزها في أبهى حلل الكلام ، بحيث تنتهي بالسامع إلى الفهم الكامل لمدلولها ..

ونحن بصدد موضوع الحوار نقتصر في دراستنا على مواقف الحسم ، التي وقفها القرآن الكريم أيام صاحب الرسالة ﷺ في وجه المبطلين من الأحبار والرهبان، والمبطلين من عموم أتباع الديانتين حين حمَّلُوا أنفسهم مهمة الاعتراض على الدين الجديد بتشويه الحقائق ، وإخفاء البشارات ، وإحراج صاحب الرسالة بكثرة الاعتراض عليه ،ومن ثم إحراج المسلمين بكثرة إلقاء الشبه عليهم في دينهم.

ومن هنا كان لزاما أن يواجه القرآن هؤلاء بالمحاجة والجدال القويم ؛ يكشف بذلك أمراض قلوبهم ، ومآل حالهم من شدة الانحراف، والإعراض عن الحق؛ يقصد بذلك في -ضمن ما يقصد- إلى أن يخضد من شوكتهم ، ويقلم من أظافر باطلهم ، ويعلم المؤمنين في كل جيل، حجة الله البالغة على بطلان تحاملهم على الدين الخاتم وأتباعه ..

وإن من أبرز مسائل الحوار قضية موقف الداعي إلى الله من الانحراف،والخلل الخطير الذي تحمله كل من الديانتين اليهودية والنصرانية: كالعنصرية،والتحريف والتثليث،وصلب السيد المسيح.فهل يمكن أن نتصور حوارا فعالا إذا استبعدت مثل هذه القضايا الجوهرية من الحوار، وتم السكوت عنها مداهنة للأطراف الأخرى ؟ وهل يمكن تصور حوار هادف يقبل عليه كل الأطراف بالتطرق إلى مثل هذه القضايا الحساسة والجوهرية بالإبطال والتكذيب ؟.

إن هذا ومثله مما تناوله القرآن الكريم، زمن صاحب الرسالة، وهو أحرص الناس على إيمان أهل الكتاب، مع قيام حجته، وتمكن دولته.

إن البحث عبر فصوله المتتالية من شأنه، بل من مهامه الكشف عن الموقف الحق الذي ينبغي على الدعاة في كل جيل إتباعه؛لما يحمله من عبء المسؤولية على الحقائق، مخافة أن تنالها يد التحريف، بالمجاملة والتجاوز.

إن مادة هذا البحث هي مجموع الآيات التي مثلت أرضية المحاجة القرآنية لأهل الكتابين زمن صاحب الرسالة بالخصوص، وغرض الباحث هو الكشف عن عناصر هذه المحاجة الحاسمة من خلال مجموع الآيات المختارة، بعد تحليلها إلى أنواعها؛ قصد إيجاد المعلم العام النظري، ثم - يجهر به في وجوه كل من سعى للتشغيب على ما ﷺالتطبيقي الذي كان صاحب الرسالة - أرسل به من الوحي، ودعا إليه من الهدى؛ بقصد صد الناس عن ذلك كله أو معظمه.

وهذا المنهج نراه أنسب بهذا البحث، وببغية الباحث في نهاية المسعى، وبالتطرق أيضا إلى قالب النظم الذي صيغت فيه هذه المحاجة ..

يعتمد البحث على أطياف مختلفة من الكتب منها :

-كتب التفسير أساسا لأنها أولى بتفسير الآيات المختارة موضوعا للمحاجة، سواء منها ما - أو الصحابة والتابعين ،كتفسير الإمام الطبري و ﷺكان بالمأثور من تفسير الرسول - الحافظ ابن كثير ..أو ما كان بالرأي المحمود حيث لا تفسير مأثورا أو هو مأثور ضعيف أو توسعة لمفهوم ما ورد من الأثر في ذلك، أو هو تجاوز لهذا الأثر عند من لا يرى تفسير الصحابي أو التابعي للقرآن ملزما؛ ما دام عن اجتهاد كتفسير الفخر الرازي وتفسير المنار..

وأعود إلى لسان العرب لابن منظور عند خصوص مناسبة تحديد مفهوم المحاجة من جهة الوضع اللغوي،وعلاقتها بمصطلح الجدل في هذه اللغة الشريفة ؛ باعتبار أن ابن منظور قد لخص عموم كلام من كان قبله من أهل اللغة .

وأعتمد بدرجة أكثر في مباحث الدرس اللغوي من هذه المحاجة؛ على التفسير البياني التي عُني بالبعد البلاغي لآيات هذه المحاجة، وبيان وظيفتها في قضية المحاجة ككشاف الزمخشري والتحرير والتنوير لابن عاشور،وفي ظلال القرآن لسيد قطب ..

وأعتمد أيضا على كتب المناظرة، والحوار بسبب أنها وظفت في موضوعها المضامين العلمية لآيات المحاجة ضمن نسق برهاني واسع؛ مثل هداية الحيارى لابن قيم ،والأجوبة الفاخرة للقرافي المالكي..

وأعود عند تعريف ديانة أهل الكتاب إلى الكتب المتخصصة في ذلك؛كالموسوعات الدينية،ولكتب البلاغة التنظيرية والتطبيقية حضور بارز في ضمن فصول البحث.

ومن صعوبات البحث في هذا الموضوع أنه يتناول خصوص المحاجة، التي تتطلب طرفين يتنازعان الحجة، ويتدافعان الإلزامات. ويندر — في حدود ما اطلعت عليه - أن يتم الربط بين وجه الحجة مجل الشاهد، وبين طبيعة النظم العربي الذي صيغت فيه ، في كتب التفسير ..، وبيان العلاقة المتكاملة بينهما .

وقد خاض الباحث غمار هذا الموضوع مستعينا أولا وأخيرا بتوفيق الله تعالى، ومتعرضا لمنه وكرمه ..ثم بتوجيهات السيد المشرف له جزيل الشكر، و متدرعا بكتب التفسير المختلفة، وما ذكرناه في مصادر البحث أعلاه .

قسمت البحث إلى ثلاثة فصول :

أتعرض في **الفصل الأول** في مجموعة من الخطوات إلى جملة مباحث.

أولها مبحث تصريف كلمة المحاجة في المعجم اللغوي عند العرب، معتمدا أساسا على كتاب (**لسان العرب**) لابن منظور. وأكشف بالمقابل عن استعمال القرآن الكريم لمصطلح المحاجة في مجمل الآيات.مقارنا بينه وبين مصطلح الجدل في اللغة العربية، والاستعمال القرآني أيضا .

وفي خطوة **ثانية** أتكلم عن مصطلح أهل الكتاب في القرآن، محللا مفهومه إلى كل من اليهود والنصارى ، متطرقا بإيجاز إلى مفهوم اليهود ثم النصارى، مجمل الديانة ، وأهم الفرق، وتاريخ التواجد لكل منهما بأرض العرب.

وأبحث في **المبحث الثالث** موقف أهل الكتاب من يهود ونصارى،من ختم الرسالات بالإسلام،والنبوات بمحمد - ﷺ - وما صدر من الإعراض والتكذيب من أهل الكتاب على مرأى ومسمع من الكفار، والمسلمين على حد سواء ؛رغم دلائل الوضوح في النبوة الخاتمة ؛ لأبرز أخيرا في مبحث رابع موقف القرآن منهم ، وهو موضوع المحاجة .

الفصل الثاني: أبحث في المبحث الأول منه احتجاج القرآن على أهل الكتاب بما معهم من العلم، وما هو مسطور عندهم من بقية الوحي الذي يظهرون للناس الإيمان به، مع أن القرآن يحكم على بعضه بالتحريف.وقد كانت نصوص التوراة الإنجيل متواجدة بين أيدي أهل الديانتين بل حتى بعض المسلمين، وأتخذ من بلاغة الآية محل المحاجة،و من نظمها اللغوي دليلا على قوة الحجة،وتمكنها من النفس والعقل.

وفي **المبحث الثاني** أتعرض لما قدمه القرآن من دليل العقل، وبرهان المنطق السليم في القضايا محل النزاع، وهو أوسع مجالا من الدليل الأول؛ لما أنه دليل متاح لعموم العقلاء على اختلاف مستوياتهم، وهو قسمة مشتركة بين المخاطبين يومئذ؛ حرصا من القرآن على وضوح حجته للناس. وقد تم اختيار جملة من الآيات لنظمها اللغوي، وبلاغة تراكيبها تعلق بفاعلية الحجة المقصودة.

وفي **المبحث الثالث** نماذج لبرهان جديد، ومسلك فعال للمحاجة القرآنية، وهو برهان الحس الذي يكشف عن الذي استقر في النفوس، من الآراء والأهواء، ويعتمد أساسا على ما يظهر للعيان ؛ حسما لموقف التحامل وفضحا للتهريج، والتشغيب من المبطلين.و قد اخترنا من الآيات ما ينم بحثها بلاغيا عن شدة الاحتجاج بها في مثل مواطنها.

الفصل الثالث : أبحث فيه عن حجة ذات طبيعة حاسمة تأخذ في الاعتبار الجانب العملي من مظاهر التدين في علية أهل الكتاب، وتكشف عن مدى وقوفهم عند تعاليم الدين الذي يزعمون إتباعه، لا مجرد الدعاوى العريضة التي يزايدون بالحرص على التظاهر بها أمام الناس.

يتضمن **المبحث الأول** الاحتجاج على أهل الكتاب بتضييع حق الله تعالى في توحيده وعدم الإشراك به، و ترك الوفاء بما أخذ عليهم من العهد.وأكشف فيه تهالك أهل الكتابين في الشرك الذي حذرت منه كتبهم على لسان أنبيائهم، وما لجوا فيه من نقض العهود الذي لا إيمان حقيقيا بدون الوفاء بها.

وفي **المبحث الثاني** أبحث تضييع أهل الكتاب حق النبوة الخاتمة بالتكذيب بها، والأعراض عن إتباع صاحبها، و ما زادوه في الوحي الإلهي بالتحريف قديما وحديثا، سواء بالزيادة أو النقصان أو بفساد التأويل.

بينما أجعل **المبحث الثالث** لمحاجة القرآن أهل الكتاب بفراغ قلوبهم من محبة الخلق بكشف سعيهم في الأرض فسادا،وفي أموال الناس بالأكل بالباطل، مع ما هو مسطر في كتبهم أنه من الكبائر، ومن ضمن الوصايا العشر التي تضمنتها كتب الديانتين.

وقد اخترت جملة من الآيات، وقمت بدراستها بلاغيا وأكدت العلاقة ما بين نظمها والحجة المسوقة لأجلها.

الخاتمة : ألخص فيها جملة نتائج البحث بجميع فصوله وتفاصيله .

ولا يفوتني بالوصول إلى هذا المقام أن أسدي الشكر الجزيل إلى السيد الدكتور العربي قلالية الذي تولى الإشراف على هذا الموضوع في فصوله الثلاثة، على ما قدمه من جدية التوجيه وأبداه من حسن التفهم، والله أسأل له دوام التوفيق إلى ما فيه رضا الخالق ،ونفع المخلوق.

إن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن شطط الفكر،ونزغات النفس الأمارة .

الفصل الأوّل

القرآن الكريم وأهل الكتاب

مباحث الفصل الأول :

المبحث الأول : مفهوم المحاجة والجدل في اللسان العربي، والاستعمال القرآني .

المبحث الثاني : مفهوم أهل الكتاب في القرآن الكريم .

أولا - حول اليهود واليهودية. وتاريخ التواجد بأرض العرب .

ثانيا - حول النصارى والنصرانية. وتاريخ التواجد بأرض العرب .

المبحث الثالث :- موقف أهل الكتاب من القرآن .

المبحث الرابع :- موقف القرآن من أهل الكتاب .

المبحث الأول

مفهوم المحاجة والجدل بين اللسان العربي، والاستعمال القرآني.

يستطيع الباحث بالإطلاع على الأصول اللغوية لكلمة **المحاجة** من خلال القواميس العربية، بالإضافة إلى رصد الاستعمال القرآني لها في مختلف اشتقاقاتها اللغوية، من محاجة، وحجة واحتجاج، يستطيع أقول أن يتبين المعنى المراد من ذلك ، والذي وظفه القرآن في سياق ردوده عل أهل الكتاب. ففي **لسان العرب** مثلا لابن منظور* ، وهو عمدة في بابه، نجد تصريف هذه المادة كما يلي: « الحجة : البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم. قال الأزهري : الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج أي جَدِل . التحاج التخاصم . وجمع الحجة حُجَج وحِجَاج ، وحاجه مُحَاجة وحِجَاجًا: نازعه الحجة. وحَجه يَحُجُه حجا: غلبه على حجته . وفي الحديث (**فحَجّ آدم موسى**) أي غلبه بالحجة. واحتج بالشيء اتخذه حجة. قال الأزهري إنما سميت حجة لأنها تُحَجُ أي تقصد لأن القصد لها وإليها .(**إن يخرج فيكم فأنا حَجِيجُه**) أي مُحَاجُه و مُغَالبه بإظهار الحجة عليه. الحجة : الدليل، والبرهان.يقال حاججته فأنا محاجٌ وحجيج، فعيل بمعنى فاعل. ومنه حديث معاوية (**فجعلت أُحُج خصمي**) أي أغلبه بالحجة.. »[1].

وقد وردت مادة (**الحجة**) في القرآن الكريم في مواطن مختلفة، وبصيغ متعددة : منها ما هو في بيان حكمة الله من بعث الرسل إلى أممهم، من أنها ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [2]، وإرشادٌ لرسول الله -ﷺ- حيال من يدفعون ما يدعوهم إليه من الهدى ، ودين الحق في خصوص شخص ، ووظيفة عيسى عليه السلام، ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾[3]،

---

* **محمد بن مكرم بن منظور 630-711.خدم بديوان الإنشاء بمصر وولي قضاء طرابلس الغرب ، له اشتغال باختصار كتب التاريخ والأدب ، أشتهر بكتابه (لسان العرب) .انظر مقدمة المحقق /09.**

[1] **- لسان العرب.ابن منظور.تحقيق : علي شيري.دار إحياء التراث العربي.ط01 .1988) ج3 /54.**

[2] **- الآية 165 سورة النساء .**

[3] **- الآية 61 سورة آل عمران .**

ونجدها في سياق الرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعواهم نسبة إبراهيم إلى التوراة أو الإنجيل ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده. ﴾ [1]، وفي شأن الخليل عليه السلام ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ﴾[2].

وما دام أن القرآن الكريم قد استعمل أيضا في تعامله مع أهل الكتاب مصطلح المجادلة، فمن اللازم تبين تصاريف هذه المادة (ج ، د ،ل) في قاموس اللغة العربية، و بالبحث نجدها كما يلي : « الجدل : اللدَدُ في الخصومة والقدرة عليها ، وقد جادله مجادلة وجدالا.ورجل جدِل ومجدل و مجدال : شديد الجدل . جادلت الرجل فجدلته جدلا أي غلبته. ورجل جدِل: إذا كان أقوى في الخصام.وجادله : أي خاصمه مجادلة وجدالا. والاسم الجدل وهو شدة الخصومة ، وفي الحديث (ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا)..» [3].

الجدل إذن مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة المناظرة والمخاصمة والمراد به في الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لا إظهار الحق ، فإن ذلك محمود لقوله عز وجل ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾، ويقال إنه لجدِل إذا كان شديد الخصام.

وباستعراض المادة اللغوية لكل من مادة التحاج ومادة الجدل تتبين أمور منها:

- أن التحاج والمحاجة كالجدل لها جميعا تعلق بالخصومة ، وإلزام الخصم مذهبا معينا فالتحاج التخاصم،والجدل شدة الخصومة، فيجتمعان في مطلق الخصومة ويزيد الجدل بأنه الشدة و اللدد فيها .

- أن كلا منهما يقصد منه الغلبة في قضية التزاع ، ومن الناحية اللغوية لا فرق فيها بين من يتدرع بالحق أو بالباطل مادام أن القصد هو الغلبة بأي وسيلة ، فالتحاج كما أنه يكون بالحق ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه ﴾[4]، يكون أيضا بالباطل مثل قوله تعالى ﴿ وحاجه قومُه ﴾ ، ولا شك أن قوم الخليل عليه السلام إنما كانوا يحاجون بالباطل يدفعون به الحق ويعترضون به على إرادة الله .

1- الآية 65 سورة آل عمران .

2 -الآية 80 سورة الأنعام .

3- لسان العرب . المصدر السابق . 212/2.

4- الآية 83 سورة الأنعام .

وكما أن الجدل يكون بالحق في مثل قوله تعالى ﴿وجَادِلهم بالتي هي أحسن﴾[1]، خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم،ولغيره من المؤمنين بشأن عموم المدعويين.فكذلك يكون الجدل بالباطل في مثل قوله تعالى ﴿ وجادلوا بالباطل ليُدحِضُوا به الحق ﴾[2]، حكاية لمسلك الكفار أمام رسالات الله، وما بعث الله به أنبياءه من الوحي والمعجزات.

ويمكن التفريق بين المحاجة والمجادلة بفرقين[3] :

1-أن المحاجة استدلال الخصم على دعوى يعتقد حقيتها، والمجادلة أعم من ذلك.فتصدق على إلزام الخصم مذهبا لا يقول به.

2- أن المجادلة أقوى من المحاجة..

وما دام البحث في دائرة القرآن الكريم ، فلا بد من درس أسلوب القرآن الكريم أمام هذه التقريرات اللغوية، هل جرى فيها على الوضع الأول، أم غير في الاستعمال.فالحجة مثلا تكون في الدليل والبرهان﴿وتلكَ حُجتنا ءاتيناها إبراهيمَ على قومه ﴾،وكذلك سمى شبهة الدليل،والاحتجاج بالباطل الصريح حجةً، وذلك قوله تعالى في شأن الكفار ﴿ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾﴾[4] ، وفائدة قيد ﴿داحضةٌ﴾ تخصيص عموم كلمة حجة،كما هو أصل وضعها اللغوي.

بينما تصريف الفعل حاج واحتج، فهو في مجموع الآيات مستعمل في حكاية مسلك المبطلين في دفع الحق ﴿ قال أتحاجُوني في الله وقد هَداني﴾، وقوله ﴿ ألم ترَ إلى الذي حاج إبراهيمَ في ربه﴾وخصم إبراهيم مبطل بلا شك .

وكذلك الجدال فهو أعم من أن يكون بحجة أو بغيرها ؛ ولذلك قيد في الآيات إذا كان من جانب النبي أو المؤمنين أن يكون بالتي هي أحسن ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [5]، أيضا﴿ ولا تجادلوا

---

[1] -الآية 125 سورة النحل .

[2] -الآية 05 سورة غافر .

[3] - انظر : الجدل في القرآن الكريم ، محمد التومي . شركة الشهاب . الجزائر (بدون تاريخ) : ص/9 .

[4] - الآية 16 سورة الشورى .

[5] - الآية 125 سورة النحل.

أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾[1]. ومقابل ذلك الجدال بالتي هي أخشن ، كما أن مقابل المجادلة بالباطل المجادلة بالحق .

ويقرر الراغب الأصفهاني* في مفردات القرآن : أن كلا من المحاجة، والجدل مترادفان في أصل المعنى.ففي المحاجة « يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته أو محجته. والجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة.»[2]. فما داما يشتركان في أصل القصد إلى رد الخصم عن حجته، فهما إذن بمعنى واحد وإن كان في أحدهما من معنى الشدة في الخصومة ما ليس في الآخر.

وقد وضح الأستاذ ابن عاشور[3] بعض ذلك بقوله « والحجة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف ، بحيث لا يجد منه تفصيا، ولذلك يقال للذي غلبه مخالفه بحجته قد حجه. وأما الاحتجاج فهو إتيان المحتج بما يظنه حجة،ولو مغالطة يقال: احتج ، ويقال حاج إذا أتى بما يظنه حجة قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾.

---

[1] – الآية 46 سورة العنكبوت

* – الحسن محمد الراغب الأصفهاني ولد في أصفهان وعاش ببغداد ،له كتب عديدة منها مقدمة في تفسير القرآن ، والذريعة إلى مكارم الشريعة، و معجم مفردات ألفاظ القرآن ..توفي 503هـ. راجع مقدمة معجم مفردات القرآن .

[2] – معجم مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني. ت: إبراهيم شمس الدين .دار الكتب العلمية – لبنان– ط1. 1997) ص /155.

[3]– محمد الطاهر بن عاشور أحد كبار علماء تونس والمفتين بها مفسر لغوي أديب من دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي . ولد بتونس (1296 هـ) بها نشأ وتعلم ودرس بالصادقية وبجامع الزيتونة . تولى مشيخة الإسلام بتونس 1932، ومشيخة الجامع الأعظم 1942، وعميدا للجامعة الزيتونية 1956. انتخب عضوا بمجمع اللغة العربي بمصر 1950، وبالمجمع العلمي العربي بدمشق 1955. له أبحاث ودراسات كثيرة نشرت في المجلات الكبرى بتونس وغيرها . وله التحرير والتنوير في تفسير القرآن يقع في ثلاثين جزءا، ضمنه مباحث لغوية كثيرة ودقيقة ، ومقاصد الشريعة ، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام ..توفي بتونس عام (1393 هـ/1973م). انظر : معجم المفسرين . عادل نويهض . مؤسسة نويهض الثقافية –لبنان–ط:1. 1984. ج 2/ 542 -543.

فالحجة لا تطلق حقيقة إلا على البرهان والدليل الناهض المبكت ، وأما إطلاقها على الشبهة فمجاز لأنها تورد في صورة حجة، ومنه قوله تعالى ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾»[1].

ومهما يكن من أمر العموم في الوضع اللغوي للمحاجة والجدل، بحيث يشمل ما كان منها بالحق أو بالباطل ، فإن القرآن الكريم وهو يحاج، ويجادل خصومه وخصوصا أهل الكتاب، قد حاج وجادل بالمفهوم الإيجابي للكلمتين ، والذي هو التزام الحق والدليل العلمي بكل أنواعه بعد استيعاب كلام الخصم، وحكاية قوله ولو إيماء ، وتسطير زعمه في الذكر الحكيم وهو نهاية الإنصاف.

وبالمقابل وقع التنبيه إلى أن مسلك الخصوم،كان دائما بمفهوم سلبية المحاجة والجدال المتضمن، لعدم الدليل والافتراء، واللغو الباطل بكل أنواعه؛ تمسكا منهم بما هم عليه من الدين، وكراهية للحق وأهله . ولما كان هذا المذهب رديئا تضيع به الحقيقة ، وتميع معه الحقائق، وكان اتباعه في مجال الأديان من ضياع الوسيلة، وتضييع الأهداف ؛نهى القرآن الكريم المؤمنين عن الجدال إلا بالتي هي أحسن .

ويمكن للباحث بإمعان النظر في عموم الآيات،ومختلف استعمالات مادة الاحتجاج، وفي شتى النواحي التي خاضت فيها الآيات ، سواء في تقرير الحقائق التاريخية بغض النظر عن اعتبار جانب أهل الكتاب المعاصرين فيها، أو في خصوص ما وقع إنكاره من طرف أهل الكتاب قديما وحديثا، أو في مسائل المحاجة للمعاصرين، الذين كانوا يتمسكون بالتكذيب العريض للدين الجديد ، يمكن للباحث المذكور، استخلاص خصائص هذه المحاجة فيما يلي بجعل الجدل من مرادفاتها .

ومن ذلك :

- أن الجدل والمحاجة « في منطق الإسلام هو ما استعمل خصيصا لإظهار الحق ،وإعلائه بالمدعمات القوية والدلائل اليقينية، وبذهي أنه لا يتم هذا إلا إذا تخلص المجادل من كل

---

[1] – التحرير والتنوير . الطاهر بن عاشور . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الدار التونسية للنشر.الجزائر،تونس . 1984 . 2/46-47.

الاعتبارات الذاتية ، وتجرد من المؤثرات العاطفية.»[1]. وبما أن الكلام هنا هو حول جدل القرآن فلا خوف إذن من الاعتبارات الذاتية ..إذ هو كلام الحكيم سبحانه .

ليس معنى أن يكون بالتي هو أحسن أنه مما يسكت فيه عن الباطل ، أو يدارى فيه المبطل، أو يقع الخوض في القضايا الهامشية، التي يمكن للمخالف أن يتغاضى عنها،فذلك مضر بالحق ومضعف لجانب أهله، « الجدال بالتي هي أحسن يرفض كل ما من شأنه أن يحول دون إظهار الحقيقة، وإدراكها من تحامل مبيت ، وافتراء ملفق، ويبغض كل المحاولات التي تتعمد إخفاء الحق وطمسه، وقذفه بما ليس فيه من معاندات مكابرة ، وخصومات صاخبة،ومغالطات مفتعلة،ومناورات مدبرة. »[2].

ذلك أنه ليس عجيبا في الفعل البشري مثل هذا وغيره من المكابرة؛ دفعا للحق ، وإيثارا للباطل؛ بسبب ما يوجد في النفوس من الهوى المتبع ، والعصبية القاهرة. ومن ثم كان جدال الإنسان أكثر من جدال كل مجادل؛ نظرا لما أوتيه من اتساع الحيلة ، وشدة المعارضة ، واختلاف النزعات والأهواء إلى غير ذلك. ولا شك « أن الجدل العقيم يقوض صرح كل دعوة نبيلة إلى الحق،حينما يصوب إليها كالسهم ، ويبدد جمال كل فكرة بناءة جادة، وفعالة ، ويسرق رونقها.. »[3]. وهذا كله ما لم يقف في وجهه جدل بحق، مثل الذي جاء به القرآن فإذا الباطل زاهق ﴿إن الباطل كان زهوقا﴾[4].

وغرض الباحث هو التفريق بين مطلق الحجة وخصوص المحاجة. ذلك أن الحجة قد لا تستدعي دائما، خصما معينا يردها، بل قد تكون حتى للمؤمنين بموضوعها ، فيكون من وظائفها زيادة الثقة في قلوب المؤمنين بها.كما هو مقتضى صيغة مفاعلة على ما سيأتي.

---

[1] – **الجدل في القرآن الكريم، المرجع السابق/35.**

[2] – **الجدل في القرآن . المرجع السابق / 27.**

[3] – **حوار أم جدل . محمد معروف . مطبعة الشروق .الجزائر . ط1. 2000. 116.**

[4] –**الآية 18 سورة الأنبياء .**

المبحث الثاني

مفهوم أهل الكتاب في القرآن الكريم .

خص القرآن الكريم -في ضمن من وجه إليهم الخطاب- كلا من اليهود والنصارى بمصطلح ﴿أهل الكتاب﴾؛ تمييزا لهم عن سائر طوائف المشركين، وعبدة الأوثان. وواضح من إضافة الكتاب إليهم الاعتراف لهم -مع نسبته التحريف له -بما كانوا عليه من التمسك بكلام النبوة الأولى، من خلال التوراة و الزبور والإنجيل. وهو ما لم يكن للمشركين وخصوصا العرب منهم. وهو نفسه مستند ما أقرهم عليه الإسلام من الأحكام الخاصة بهم ، وقبول تواجدهم كأهل ذمة في المجتمع الإسلامي.

وقد تردد هذا المصطلح كثيرا في القرآن الكريم، بما يقارب ثلاثين مرة[1] منها ما هو في العهد المكي، وأكثرها في العهد المدني ، إضافة إلى تنويع استعماله.

- ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[2] .

- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] .

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4] .

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[5] .

- ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[6] .

---

[1]-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.محمد فؤاد عبد الباقي.دار الأندلس.بيروت.(بدون تاريخ)/95.

[2]- الآية 105 سورة البقرة

[3]- الآية 109 سورة لبقرة.

[4]- الآية 64 سورة آل عمران .

[5]- الآية 65 سورة آل عمران.

[6]- الآية 69 سورة آل عمران .

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[1] .

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] .

- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3] .

- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4] .

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾[5] .

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[6] .

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[7] .

- ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[8] .

- ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[9] .

- ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[10] .

---

[1]- الآية 70 سورة آل عمران .

[2]- الآية 71 سورة آل عمران.

[3]- الآية 75 سورة آل عمران .

[4]- الآية 75 سورة آل عمران .

[5]- الآية 98 سورة آل عمران .

[6]- الآية 99 سورة آل عمران.

[7]- الآية 110 سورة آل عمران.

[8]- الآية 113 سورة آل عمران.

[9]- الآية 199 سورة آل عمران .

[10]- الآية 123 سورة النساء .

- ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾[1].

- ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[2].

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[3].

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[4].

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾[6].

- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[7].

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[8].

---

[1]- الآية 153 سورة النساء

[2]- الآية 159 سورة النساء

[3]- الآية 171 سورة النساء

[4]- الآية 15 سورة المائدة .

[5]- الآية 19 سورة المائدة .

[6]- الآية 59 سورة المائدة

[7]- الآية 65 سورة المائدة

[8]- الآية 68 سورة المائدة .

-﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1].

-﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

-﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[3].

-﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[4].

-﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[5].

-﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[6].

-﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[7].

-﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾[8].

---

[1]- الآية 77 سورة المائدة .

[2]- الآية 46 سورة العنكبوت .

[3]- الآية 26 سورة الاحزاب .

[4]- الآية 29 سورة الحديد .

[5]- الآية 02 سورة الحشر .

[6]- الآية 11 سورة الحشر .

[7]- الآية 01 سورة البينة .

[8]- الآية 06 سورة البينة .

ففي سياق دعوة الفريقين إلى المتفق عليه مما أقرته جميع الأنبياء ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [1].

وفي سياق دعوتهم إلى الرسول الجديد -﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[2]. وفي شأن تعليم المؤمنين طريق دعوتهم والتعامل معهم ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3]. وفي سياق تحذير المؤمنين من ضلالهم وإضلالهم ﴿يا أيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾[4]

وهكذا في سياقات كثيرة..ومختلفة وقع القليل منها في العهد المكي ، ووقع أكثر ذلك في العهد المدني، ما دام أن أهل الكتاب وخصوصا اليهود قد تجسد عداؤهم في هذا العهد واضحا للعيان في القول والعمل ، بالوقوف في جانب الكفار في حربهم للرسول ، لما قدم عليهم صاحب الرسالة وتوطن حيث كانت مراكزهم التجارية ، ومواطن زعاماتهم الدينية والدنيوية فأفسد عليهم فيما –يحسبون– أمر دينهم ودنياهم.

ويتضمن هذا المصطلح مجموع اليهود والنصارى. وغالب استعماله إنما يكون في المواطن التي يشترك فيها الفريقان في موقف واحد، اتجاه حقيقة ما، أو أمر من أمور الإيمان.

ففي قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[5]، نجد الرد على

---

[1] – الآية 64 سورة آل عمران .

[2] – الآية 15 سورة آل عمران .

[3] – الآية 46 سورة العنكبوت .

[4] – الآية 100 سورة آل عمران .

[5] – الآية 171 سورة النساء .

اليهود في تقليلهم لشأن السيد المسيح عيسى بن مريم ، والوصول إلى حد الطعن في نسبه .
كما يرد إفراط النصارى في أمره ونسبته إلى الألوهية مع وضوح دلائل البشرية فيه .

وفي مقام آخر – فيما يتعلق بواجب الفريقين في قضية الإيمان بالرسول الخاتم– يقطع عليهم الحجة في عدم الإيمان به ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

ومرة يفضح مخالفتهم لأحكام التوراة ، ويجمع الفريقين في خطاب واحد منكرا عليهم طريق الجريمة في التعامل مع الخلق في خصوص كسب المال، مع ورود النهي عن مثل ما يفعلون في كتبهم ، ثم هم يتلونه على العامة فيما يتلونه من أمور الديانة ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وأحيانا يترك القرآن الكريم المصطلح ـ أهل الكتاب ـ إلى تخصيص كل طائفة بما يعنيها من الخطاب؛ إذ كان الموقف قد تحدد بفرقة واحدة مثل ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

ففي أي من القضيتين المنفصلتين نجد كل فرقة تتميز عن الثانية في الاعتقاد ، بحيث تتمسك بما هي عليه ، وتكفر بما عند غيرها . فلا مجال إذا للجمع بينهما في خطاب واحد ؛ بسبب ما بينهما من عدم الاشتراك في الموقف .

وفي خطابهم بأهل الكتاب :

- تقدير لحالهم ، وتفضيل لهم على المشركين ممن ليس لهم كتاب، ولا أثارة من علم؛ لما لم يكن لهم نبي ، و لم يحافظوا على نبوة إبراهيم . فقد زادوا عليها من الوثنية حتى تغيرت معالمها؛ لكثرة ما غشيها من ذلك.

---

[1] – الآية 19 سورة المائدة .

[2] – الآية 75 سورة آل عمران .

[3] – الآية 30 سورة التوبة .

- وفيه كذلك لمس لقلوبهم بواسطة تذكيرهم بالأساس المشترك مع المسلمين. فالكل له كتاب من الله . وكتب الله يصدق بعضها بعضا . ذلك أنها من مصدر واحد، والأنبياء الآتين بها أبناء علات[1] .

فالقرآن إذن يشير عموما بندائهم بـــ-أهل الكتاب- ونسبتهم إلى الكتاب إلى مبدأ تحميلهم مسؤولية مواقفهم؛ حتى تتميز عن مواقف المشركين. فلا تزيد في ضلال الخلق وغضب الخالق ، ولا يلقى بها الداعون إلى الله الشدة كما يلقونها من الكفار.

ويقول الأستاذ صبحي صالح* : « وما دام الإسلام قد أقر مبدأ المجادلة بالتي هي أحسن لكل إنسان بوصفه إنسانا حتى ولو كان مشركا أو وثنيا ، فلا غرابة إذن في تخصيصه أهل الكتاب وأتباع الأنبياء بأرفع آداب الجدال، والنقاش عند كل حوار ولقاء ؛ لأنه أقام على تشابه الأديان في تفهم ظاهرة الوحي قاعدته الأساسية في وجوب التلاقي الدائم بين الروحيات جميعا ووجوب انعكاس آثارها على الحياة المدنية في جميع الميادين. »[2].

- وقد يكون في تصدير خطابهم بمثل هذا النداء نوع من تنبيههم إلى خطورة مواقفهم اتجاه الرسول الجديد ، والرسالة الخاتمة؛ حذرا من تشابهها بمواقف الكفار من العرب وغيرهم. الذين يصدرون في مواقفهم عن الأهواء الجامحة ، والعصبيات المقيتة ، والمصالح الضيقة والحرص على الزعامة بين أقوامهم .

بخلاف مواقف أهل الكتاب، فالواجب أن تستند إلى كتاب، المفروض فيهم أن يتبعوه لا أن يخالفوه، مادام أن الخطأ من أهل الكتاب ليس كالخطأ ممن ليس لهم كتاب ، ككفار العرب، والتكذيب ليس كالتكذيب.

---

[1] - نص الحديث : " حدثني حرملة بن يحيى. أخبرنا ابن وهب. أخبرني يونس عن ابن شهاب؛ أن أبا سلمة بن عبد الرحمن أخبره؛ أن أبا هريرة قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أنا أولى الناس بابن مريم. الأنبياء أولاد علات. وليس بيني وبينه نبي". حديث صحيح أخرجه مسلم برقم 2365.

* - صبحي إبراهيم صالح من مواليد طرابلس لبنان ، تخرج بالعالمية من الأزهر 1949، ومن السربون بالدكتوراه 1954.عضو في كثير من المجامع العلمية ..مقدمة كتابه الإسلام ومستقبل الحضارة / 01.

[2] - الإسلام ومستقبل الحضارة . صبحي صالح .دار الشورى –بيروت – ط:01 .1982 . ص/258.

وهذا الأمر قدره القرآن كما قدره أيضا المشركون زمن صاحب الرسالة. فالقرآن يستشهد على كفار قريش بموقف أهل العلم من الكتاب بالرسول الجديد . فقد قال تعالى مخاطبا قريش ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [1] ، وقال لرسوله ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [2].

وقد ورد في السيرة أن أهل مكة سألوا اليهود إن كانت عبادتهم، وما هم عليه من الدين خيرا أم ما يدعوهم إليه محمد ، فضللهم أهل الباطل، وتجار الضلال ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [3].

ثم هو أخيرا نوع من توفير أرضية حوار بين الأطراف، قاعدته الوحي وتعظيم الأنبياء، والرجوع عند الاختلاف إلى ما تحمله هذه الكتب ؛ لأجل التميز في المواقف، والمواقع عن الأفكار البشرية ، وصراع الأهواء والجدال بالباطل .

---

[1] – الآية197 سورة الشعراء .

[2] –الآية 94 سورة يونس .

[3] – الآية 51 سورة النساء .انظر في ذلك تفسير القرآن العظيم. ابن كثير.دار الأندلس.بيروت.لبنان .ط : 06 1984. ج 316/2.

وفيما يلي نتعرض إلى كل طائفة بشيء من التفصيل :

أولا – اليـــــــــهود:

ورد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم ثماني مرات[1]، وباستعمال المشتق منه يصير عدد المادة أحد عشر مرة.

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2].

- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[3].

-﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[4].

-﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[5].

-﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[6].

-﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[7].

---

[1]– المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي /775.

[2]– الآية **113** سورة البقرة .

[3]– الآية **120** سورة البقرة.

[4]– الآية **18** سورة المائدة.

[5]– الآية **51** سورة المائدة.

[6]– الآية **64** سورة المائدة.

[7]– الآية **82** سورة المائدة .

-﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

-﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

-﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2] .

-﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

- ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ[4] ﴾ .

وقد اختلف الباحثون في أصل هذه المادة. فعلماء الإسلام كما في كتب العقائد يرجعون تسمية أتباع الديانة الموسوية بـ﴿ اليهود ﴾ إلى فعل التوبة التي تبناها بنو إسرائيل زمن موسى ، مما كانوا عليه من العناد، و المخالفة لأمر الله ولرسوله موسى عليه السلام . ففي سورة الأعراف﴿ إنا هدنا إليك ﴾[5].

---

[1]- الآية 11 سورة البقرة .

[2]- الآية 135 سورة البقرة .

[3]- الآية 140 سورة البقرة .

[4]- الآية 156 سورة الأعراف .

[5] - الآية 156 سورة الأعراف .

وممن قال بذلك الشهرستاني* وكثير من المفسرين « اليهود خلاصة هاد الرجل أي رجع وتاب؛ وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي رجعنا ،وتضرعنا.وكتابهم التوراة»[1].

ويهمنا هنا معرفة المصطلح عند الدارسين للكتاب المقدس سواء من مسيحيين، أو نقاد غربيين ظهرت في القرون المتأخرة عقب النهضة الأوربية ، وما تبعها من حملة عامة على الأديان بالحق وبالباطل. وهي دراسات نقدية شديدة ومركزة يقرر من خلالها علماء أهل الكتاب خصوصا المحدثين منهم أن المصطلح يعود بالضبط إلى (**يهوذا**) أحد أسباط نبي الله يعقوب عليه السلام الملقب بإسرائيل .[2].

وعلى كل فقد استعمل القرآن الكريم هذه التسمية أي اليهود علَما على أتباع الديانة الموسوية، ومن حمل لواءها من الأنبياء اللاحقين ممن جاء بعد موسى عليه السلام،والمؤمنين بالتوراة على اختلاف فرقهم ، وتميزوا بذاك عن أتباع عيسى عليه السلام ؛ لما أنه لما بعث إليهم استنكفوا أن يؤمنوا به كما هي عادتهم مع كل أنبياء الله على ما هو الثابت تاريخيا.

• – محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فيلسوف محقق في الفقه والكلام والأديان والملل والنحل ولد بشهرستان ببلاد فارس 479هـ أقام ببغداد سنين له الكتاب المشهور الملل والنحل، كما له مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار في التفسير توفي 548هـ.راجع معجم المفسرين 2/553-554.

[1] – الملل والنحل . محمد بن عبد الكريم الشهرستاني . دار الكتب العلمية –بيروت– لبنان. (بدون تاريخ) ج2/520 .

[2] – راجع مدخل لدراسة التوراة والعهد القديم .محمد علي البار.دار القلم .سوريا.ط1. 1990./41،42.

أ- مجمل الديانة اليهودية :

لليهود كتابان هما التوراة والتلمود ، أما التوراة « فيرون أن الله أنزل على موسى عليه السلام وحيا مكتوبا،وهي العهد القديم مما يسمى عند النصارى (**الكتاب المقدس**)،ويبدأ العهد القديم بمجموعة الكتب الخمسة التي تتكون من أسفار التكوين والخروج و اللاويين والعدد. والتثنية . وقد أطلق اليهود على هذه الكتب الخمسة أسم **– التوراة –** ، كما يطلقون عليها أحيانا اسم –**الناموس**- أو - **القانون** -»[1].

و لم يقع في الأسفار الخمسة من الاختلاف ما وقع في غيرها من الأسفار ، فقد حصل إنكار كثير من الكتب والأسفار عند مختلف طوائف اليهود قديما وحديثا. و في كتاب إظهار الحق[2] بالتفصيل عدد ما وقع إنكاره ، وقائمة من أنكر شيئا من ذلك في أول الكتاب. وهو أمر يدل على مدى الاختلاف في منصوص الكتاب اليهودية، وما يكون قد تركه فيهم موسى، وغيره من الأنبياء من الوحي. ويدل كذلك على فقد سند الاتصال بأصحاب هذه الكتب؛ إذ ما ينبغي مثل هذا الاختلاف في كتاب سماوي المفروض أن ينال من الحفظ والاهتمام أكثر من غيره من كتب البشر ولكنها حكمة الله العظيم .

و(**التلمود**)«كتاب سري لا يكاد يطلع عليه أحد، ولا يطبع منه شيء إلا في فترات يحدث فيها لليهود بعض التمكن في الأرض، ويحصل لهم بسبب إظهاره من الويل ما لا يطيقون والسبب في ذلك كله، ما فيه من أحكام عدوانية، ووصايا بجرائم في حق البشرية ، وما فيه من التفرقة العنصرية بين الأمم التي يطلقون عليها -الأمميين -»[3].

يشتمل التلمود على عدة لوائح وقوانين منها لوائح زراعية،وأخرى في الأعياد والصيام وقوانين الزواج والطلاق والنذور والناذر ، ورسالة حول علاقة الوثنيين باليهود ، وبعض قوانين مدنية وجنائية ، وأخرى في الصلاة والنجاسات وطرق التطهر منها وغير ذلك ..[4].

---

[1] – مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم ،محمد خليفة حسن أحمد .(ب،د . القاهرة ، 1996)/17.

[2] – راجع إظهار الحق ، رحمة الله الهندي .دار الجيل –بيروت– (بدون تاريخ) / 55–58.

[3] –التوراة تاريخها وغاياتها . سهيل الديب (دار النفائس –لبنان–ط6، 1986)/82–83.

[4] – راجع : التلمود تاريخه وتعاليمه ، ظفر الإسلام خان . 15–16.

ويمكن تلخيص ما يحتويه التلمود بأنه « مركب عجيب لآراء متناقضة وأمثال وأحكام كإباحة الربا، وتقديم الأطفال قربانا للآلهة،ويجيز الغش وكراهية المسيحيين ، ولا التزام على اليهودي لغيره بشيء ، وغير ذلك ن أحكام العدوان والعنصرية والوعود الخرافية الكاذبة »[1].

وأما الشرائع فمن خلال مطالعة الأسفار المختلفة يتبين الباحث كثيرا من التعاليم اليهودية كالوصايا العشر الواردة في سفر الخروج ، وشعائر الأعياد الدينية، إذ « يهتم اليهود اهتماما كبيرا بأعيادهم الدينية.ذلك لأنها ترتبط بتعاليم التوراة والعهد القديم ، كما ترتبط ارتباطا جليا بتاريخهم.»[2].

كما أن في التوراة عقوبات بالرجم بالحجارة لكثيرة من الجرائم : التجديف على الله (اللاويين **24:16**) ، وعبادة الأصنام(التثنية **13:10**) . القيام بأي عمل يوم السبت(العدد**15:35**)،والتمرد على الأبوين(التثنية**21:21**) ،وزنا العذراء المخطوبة(التثنية **02:42**)،وزنا المتزوجة إذا ثبت أنها عند الزواج لم تكن عذراء(التثنية**20:22**)،ومصاحبة الجان والتوابع(اللاويين **22:20**) ، والغلول (يشوع**25:7**).

والشريعة عند اليهود كما يقول الشهرستاني : « لا تكون إلا واحدة ابتدأت بموسى وتمت به؛إذ لم تكن قبله حدود عقلية وأحكام مصلحيه.»[3]. وفي خصوص النسخ يتفق اليهود على عدم وقوعه؛ لما في إقرار النسخ والتسليم بوقوعه من إبطال لما هم عليه من الدين خصوصا بنبوة محمد وما جاء به من شريعة .

وفي الملل والنحل نص يلخص مذهب اليهود في قضية النسخ حيث يقول أن :« طائفة منهم تجيز النسخ عقلا إلا أنه لم يقع ، وطائفة أخرى تمنع جوازه تبعا لذلك .»[4].

– وأما في خصوص الإله عند اليهود، فيرى كثير من الباحثين أن اليهودية ديانة توحيدية في صيغتها النهائية ، وأن ذلك التوحيد إنما جاء به موسى عليه السلام ، إذ كانوا قبله أهل أوثان.

---

[1] – المرجع نفسه /90-91.

[2] – المدخل إلى التوراة .المرجع السابق . 287.

[3] – الملل والنحل .الشهرستاني . ج232/1.

[4] – الملل والنحل ، المصدر نفسه . ج1 /233.

يدل على ذلك أن قوم نبي الله موسى قالوا له بعد نجاتهم من فرعون ﴿ يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾[1]، وهو دليل على تأصل حال الشرك فيهم .

ثم إن « هم قد وصلوا إلى التوحيد عن طريق التطور. ورغم دعوة موسى التوحيدية لم يتمكنوا من الخروج من طور التعددية إلى طور التوحيد، إلا بعد مخاض طويل وأليم جدا ، فقد اعتنقوا التوحيد لكنهم لم يستطيعوا التخلص من آلهتهم المتعددة إلا بعد فترة طويلة.»[2].

وإنه مما لا شك فيه أن هذا إنما يكون في أمة قد تأصل فيها الشرك، وتجذرت فيها الوثنية إلى الدرجة التي يكون التوحيد معها أمرا طارئا، لم تكف المعجزات الخارقة لإنهائه .

إن المتتبع للتوراة ليلحظ بوضوح ظاهرة ذكر الآلهة بصيغ الجمع ، كما يقرأ أسماء آلهة متعددة فالفصل الثاني والعشرون من سفر الخروج يتكلم عن حكم الآلهة مرارا وتكرارا ، ولا سيما في المباهلة المأخوذة من نموذجها المصري : « وإذا لم يوجد السارق يقدم صاحب المترل إلى الآلهة ليحلف»(**22 / 8**) ، و « كل دعوى جناية ..فإلى الآلهة ترفع .. ومن تحكم له الآلهة عليه يعوض صاحبه مثلين » (**9/22**).»[3].

– و أما فيما يتعلق ببعثة الأنبياء الذين كان الله سبحانه وتعالى يرسلهم إلى بني إسرائيل من بعد موسى، يؤمن اليهود حسب اختلاف فرقهم بالأنبياء عموما،وإن كانت كل فرقة تستثني من الإيمان بعضا منهم، وسيأتي ذكر ذلك عند مدارسة أهم الفرق اليهودية ، غير أنه يجمعهم جميعا إنكار نبوة عيسى عليه السلام ، وهو منهم مبشر به في كتبهم ، وأنه من نسل داوود عليه السلام.

---

[1] – الآية **138** سورة الأعراف .

[2] –التوراة بين الوثنية والتوحيد . سهيل الديب . دار النفائس –لبنان– ط :2. **1985**. /**43**.

[3] – المرجع نفسه .ص/ **43**.

كما يجمعهم جميعا إنكار نبوة محمد ﷺ النبي العربي الذي أهلكهم جحود نبوته، لكونه معلوما عندهم بالاسم والرسم. حتى قرر عليهم القرآن في سورة البقرة من أنهم يعرفونه كما –سيأتي– تمام المعرفة، مثلما يعرفون أبناءهم لا يشكون في ذلك. بل وأكثر من هذا يسجل القرآن عليهم أنهم يكتمون ما عرفوا، ولولا تأكدهم منه ما كتموا عنه شيئا.

ومن جملة طوائف اليهود (المشبهة) « وهم يصفون الله بأوصاف مادية وردت بها نصوص التوراة صريحة في التشبيه « مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهرا والنزول عند طور سيناء انتقالا،والاستواء على العرش استقرارا ، وجواز الرؤية فوقا. وأما القدَر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الإسلام ،فالربانيون منهم كالمعتزلة فينا، والقراء ون كالمجبرة والمشبهة »[1].

قد بحث كثير من العلماء في الصيغة النهائية لدين اليهود ، بما فيهم علماء الإسلام فقرروا تأثرها بالمذاهب والوثنية المجاورة، والتي خالطها اليهود عبر تاريخهم الطويل، « بيد أن أمة إسرائيل لم تكن قد وصلت من الانعزال عن العالم الخارجي إلى ما تستطيع به أن تجتنب تأثيرات السريانية، والكلدانية التي عاشت بجوارها.كما أنها تأثرت ولا شك بصلاتها المستمرة بالفاتحين الإغريق . »[2].

وفي موضع آخر: « وإلى جانب العبادات القومية وكان بعضها ما يزال حيا، قوي التأثير وأساطير الديانة الأولمبية ، وتأملات الفلاسفة اليونانيين وعقائدهم. وقد انتهى الأمر إلى التبسيط حتى تكون في متناول الناس »[3].

وهكذا يتبين لنا الخط الذي تبعه تطور الديانة اليهودية من أيام جاء موسى عليه السلام بالدين غضا طريا ، مرورا بتأثرها بالفلسفات المجاورة ، إلى صيغتها النهائية.

---

[1]– الملل والنحل ، للشهرستاني . 233/1.

[2]– شارل جنبيير . المسيحية نشأتها وتطورها .منشورات المكتبة العصرية–بيروت–(بدون تاريخ)/19.

[3]– المسيحية نشأتها وتطورها .نفس المرجع /31 .

ب-أهم الفرق في الديانة اليهودية :

انقسمت اليهود كما هو حديث الصادق ﷺ إلى اثنين وسبعين فرقة[1]، ذلك أنه عبر التاريخ الطويل لبني إسرائيل أنتجت طبيعة النص الموروث لليهود، كما أنتجت طبيعة تدينهم مجموعة من الفرق، منها ما اندرس فلم يطلع على حقيقته، ومنها ما كان محدود التأثير ينحصر أتباعه في زمن دون آخر، ومكان دون مكان. إلا أن فرقا كبرى سجل التاريخ عقائدها،كما حازت بدورها أكبر المساحات على مستوى الأتباع .

وكذلك يجد الباحث فيها من الجماعات ما تتمسك بحرفية النص التوراتي لا تتعداه ، ولا تسمح لأحد ، بتسليط التأويل عليه ، بغرض تحليله ، بل يجري الأمر على اعتماد ظواهر النصوص ، ولا غرابة كما سيأتي من أن يشيع التشدد عند هذا القبيل من الناس ، ومحاسبة الأتباع وفق ظاهر النص .

بينما قامت جماعات من بني إسرائيل بتجاوز ظاهر النص إلى ما يحويه من دلالات عقلية ، وخلفيات ثقافية ، يرون النص قد حملها عبر السنين ، وشخصيات الكتبة ، وغير خاف أن هذا الاتجاه بالعكس من الأول يشيع فيه ضعف الديانة ، وعدم الانضباط بالأحكام التوراتية ، وبالتالي التساهل في أخذ الناسُ على وفقها.

---

[1] – حديث افتراق اليهود. "افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقةً، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقةً، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً". هذه رواية أبي داود

داود كتاب 39 الباب الأول رقم :4596.

وله روايات أخرى منها :

– رواه الترمذي ك38 باب 18–20.

– ابن ماجة كتاب 36 باب 17...

انظر في هذه الإحالات : مفتاح كنوز السنة .الدكتور أ.ي.فنسنك .ترجمة /محمد فؤاد عبد الباقي .دار إحياء التراث العربي .بيروت .1983. / 106.

وعلى كثرة هذه الفرق بالاعتبارات المختلفة زمانا ومكانا ، ولاعتبارات كما رأينا تعود للنص مرة ، وثقافة بعض الأتباع ، فإن فرقا بعينها شاع أمرها قديما وحديثا ، وكانت محل درس ، وتأريخ ، ورصد للعقائد ، والمناهج .

ونحن ههنا نتجاوز ذكر كثير من الفرق خصوصا الحديثة منها، ونقصر الحديث على الفرق القديمة؛ لأن موضوع المحاجة أساسا إنما هو حول فرق اليهود الذين كانوا زمان الرسول ﷺ ويكون القرآن قد تناول ما هم عليه من الدين بالكلام، والأخذ والرد.

والذين كان يتخذون مما هم عليه من الدين حاجزا يمنعهم من تصديق الرسول الجديد ، بل يحتم عليهم تكذيبه ، والحمل على ما جاء به من ديانة ، واتبعه من أصحاب.

ولذلك نذكر ثلاث فرق رئيسية دون غيرها:

1-الصدوقيون :

الصدوقيون هم « أتباع صادوق الكاهن الذي جعله سليمان عليه السلام،كبير الكهنة في أورشليم.كان لهم –أي لأتباع هذا الكاهن –وحدهم الحق في خدمة الهيكل، فهم كانوا حزب الكهنة ، وكان الأرستقراطيون من اليهود يدعمونهم في سياستهم الموالية للرومان ، وكانوا الأكثرية في المجلس الأعلى (**السندهرين**). وكانوا يرفضون تقاليد الشيوخ و ينكرون قيامة الموتى. »[1]. وواضح من هذا النص أن من أسباب قولهم دعم الطبقة الثرية لهم،كما أن موالاة هذه الفرقة للرومان قد مد في عمرها .

وفي الموسوعة اليهودية أن هؤلاء كانوا طبقة من الفكر الحر، بمعنى أنهم كانوا يعطون لأنفسهم حق مناقشة النصوص وتأويلها ،كما قد عبروا عن رفضهم لوساطة الشيوخ في مسائل الدين والتدين . وليس ذلك بالأمر السهل في ديانة مبنية على التشدد ، وتدين يحتكر فيه الأحبار امتياز قيادة المجتمع.

---

[2]– الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية. حنفي عبد المنعم.دار المسيرة بيروت .ط:01– 1980 /135.

3– الموسوعة النقدية . المرجع نفسه /135.

ثم إن هؤلاء الصدوقيين بفعل عقائدهم قد «مالوا إلى الفلسفة اليونانية خاصة فلسفة أرسطو، وكانوا عقلانيين وظاهريين. فقالوا بحرية الإرادة و القدرة على عمل الخير،ومدافعة الشر. وأنكروا وجود الملائكة والروح، ورفضوا الإقرار بالقيامة والثواب في الجسد بدعوى أن النفس تموت مع الجسد، وأن النص التوراتي يخلوا من أي إشارة إلى معاد وحساب.»[1].

وإن هذا النص يدل على أن الصدوقيون كانوا عقلانيين أكثر من اللازم ، حيث حصروا الحقائق في دائرة المحسوسات لا يتعدونها ، فأنكروا جملة من الحقائق مما نطقت به الأنبياء .

وقد ورد في الإنجيل في مواضع عديدة بعض من عقائدهم منها :

– على لسان بولس « لان الصدوقيين يقولون انه ليس قيامة و لا ملاك و لا روح » (**أعمال الرسل 23: 08**).

وبالتالي فقد أنكروا قيامة المسيح من بين الأموات ، وكانوا كما ورد في بعض النصوص يتضجرون من ذلك « و بينما هما يخاطبان الشعب اقبل عليهما الكهنة و قائد جند الهيكل و الصدوقيون متضجرين من تعليمهما الشعب و ندائهما في يسوع بالقيامة من الأموات » .

وقضية إنكار هذه الفرقة للقيامة والآخرة أمر له سند في الثوراة ، فقد قرر الإمام البلاغي ذلك قائلا:« وأما القيامة والآخرة والثواب والعقاب فيهما ، فلم تذكر التوراة الرائجة فيها شيئا أصلا حتى أن إهمال ذلك بالكلية في مقامات الوعد والوعيد كاد أن يكون تعليما بأنه لا حقيقة لشيء من ذلك ، فإنك ترى التوراة الرائجة كثيرا ما تصدت للترغيب والتخويف والوعد والوعيد ، فلم تذكر في الوعد والترغيب إلا التنعم الدنيوي الفاني كالاستعلاء على القبائل والبركة في المزارع ونتاج البهائم والسلة و المعجنة وثمرة البطن وما أشبه ذلك ، ولم تذكر في الوعد والتخويف إلا نحو اللعنة فيما تقدم ذكره ، والابتلاء بالأمراض الرديئة والقحط والذلة ، وأنه يخطب امرأة ، ورجل آخر يضطجع معها ، ونحو ذلك»[2] .

---

[1] – **الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية . المرجع نفسه /157.**

[2]– **الهدى إلى دين المصطفى . محمد جواد البلاغي . دار الكتب الإسلامية . إيران (.بدون تاريخ) 282/2.**

2-الفريسيون:

ومثل ما قدمنا فإن طبيعة التدين تفرز في أحيايين كثيرة فرقا متعددة . فنحن نجد فرقا من الأديان، التمسك بحرفية النص من لب الدين عندها، ويشكل الفرق بينها وبين غيرها من سائر الفرق. ونعود لبيان أن « الكلمة من جذر آرامي(**فريشو**) مفصول ومنعزل، عرفوا بذلك لأنهم كانوا متشددين في الحفاظ على الناموس، وتقاليد الشيوخ، وشريعة السبت فكانوا يأنفون من معاشرة الذين يخالفون الناموس، ويعتبرونه خطأ لا يجوز الاختلاط بهم، ولا سيما الوثنيين الذين كانوا بنظرهم نجسين .

وكان أكثر علماء الناموس فريسيين فأوغلوا في التظاهر بالتقوى، حتى أصبح الرياء والنفاق من صفاتهم فوبخهم السيد المسيح على كبريائهم، ورياءهم على أنهم كانوا ضد الحاكم الروماني وينتظرون خلاص إسرائيل من الله **بالمسيح المنتظر**» [1].

ونرى من هذا التقرير أن طبيعة التدين، وحرفية النص هي عامل قيام هذه الفرقة ولذلك تنسجم مع ظاهرة التدين الشعبي، وفي الأوساط المتوسطة والمحرومة والتي تجد عزاءها مما تقرأه في النص وأمل قدوم المسيح المخلص وخصوصا أن هذه الفرقة قد جسدت عاطفة العداوة للحاكم الروماني الذي كان يرهق كاهل اليهود عموما.

ومن ضمن ما خالفت فيه هذه الفرقة غيرها أنهم : « يؤمنون بفناء الجسد لكن الروح باقية، وهناك قيامة ويوم دينونة، ويؤمنون بالملائكة والجن والأرواح . »[2].

والحق أنه هذه مسألة جوهرية، فإن قارئ العهد القديم لا يكاد يعثر على ذكر لليوم الآخر في ترغيب ولا ترهيب. وقد تجسد هذا في بعض الفرق اليهودية التي أكثرت من عدم ورود اليوم الآخر في معتقداتها فهي تصرح بإنكاره كما مر أعلاه ، ومنهم من يجعل المعاد روحانيا ، وفي الموسوعة اليهودية « وقد أراد الله للإنسان أن يكون حرا؛ ليوفيه الحساب يوم القيامة. والمعاد عند الفريسيين بالروح والجسد معا، وإلا فلا معنى للحساب. » [3].

---

[1] - **انظر الموسوعة النقدية /157-158.**

[2] - **مدخل إلى التوراة والعهد القديم . محمد علي البار . ص/245.**

[3] - الموسوعة النقدية ، المرجع السابق /**157**.

3-السامريون :

أدى اختلاط اليهود بغيرهم من الأمم على مدار التاريخ الطويل الذي صحب التكوين الديني لليهود إلى ظهور فرق ، تأثرت إلى حد بعيد بالفلسفة المجاورة والوافدة. وهذا ربما ناسب طبقة خاصة من المجتمع تؤهلهم قدراتهم العقلية إلى التوفيق بين النصوص الدينية الموروثة، وما تحمله من عقائد، وما يتوصلون إليه بعقولهم الحرة.

كذلك يؤدي هذا الاختلاط بالطرف المقابل إلى عجز فئات اجتماعية عدة عن التفريق بين الطبيعة التوحيدية للدين الجديد، والبيئة الوثنية السابقة، أو المعايشة له. وعلى سبيل المثال فقد بدا واضحا تأثر هذه الفرقة بالوثنية .

ينتسب هؤلاء إلى منطقة السامرة بالضفة الغربية ،و لا يعترفون إلا بـــ « أسفار الشريعة أسفار موسى الخمسة، ويرفضون بقية الأسفار الأخرى ، وهناك نسخة من التوراة السامرية مكتوبة باللغة العبرية المدونة بالحروف الفينيقية القديمة، وهي تختلف إلى حد كبير عن التوراة الأخرى. »[1].

على خلاف فرقة الصدوقيين فإن السامرية ترى : أن في توراة موسى نصا على يوم القيامة وأن العبرانيين حرفوه إلى يوم الجزاء ، قد يكون يوم القيامة ، وقد يكون يوما من أيام هذه الحياة الدنيا[2] .

لم تسلم معتقدات السامريين من التأثر بالوثنيات السابقة، والمصاقبة لهم « كما امتزجت معتقداتهم بكثير من الأفكار والطقوس الوثنية أخذوها عن الشعوب التي خالطوها منذ أن غزا بلادهم الملك **سرجون** الأشوري **722**.ق.م»[3].ولهم ما يميزهم عن غيرهم من الفرق ففي الموسوعة اليهودية أنهم « يتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود. أثبتوا نبوة موسى وهارون، ويوشع بن نون، وأنكروا بنبوة من بعدهم.»[4]. وفي موضع آخر أنهم ينكرون جملة

---

[1] – مدخل إلى التوراة والعهد القديم . المرجع السابق . ص:**235**.

[2] – نقد أسفار التوراة .أسفار موسى الخمسة . دكتور أحمد حجازي السقا . دار الجيل –بيروت – ط:**01** . **1995**. / **241** .

[3] – المرجع نفسه . ص:**252**.

[4] – الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية . عبد المنعم حنفي.ص/**115**.

الأنبياء بعد موسى ويقولون : « التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي من بعد موسى يصدق ما بين يديه من التوراة ، ويحكم بحكمها ولا يخالفها البتة»[1].

وفي كتاب الفصل « ولا يعرفون حرمة البيت المقدس ولا يعظمونه ولهم توراة غير التي بأيدي سائر اليهود ،ويبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد يوشع ، فيكذبون بنبوة شمعون وداو ود وسليمان واشعياء واليسع والياس وعاموس وحبقوق وزكرياء وأرمياء وغيرهم. »[3] ثم يضيف قائلا: « ولا يقرون بالبعث البتة وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها . »[4].

---

[1]- المرجع نفسه .ص:115. .

[2]- الفصل في الملل والنحل . ابن حزم . دار الجيل . لبنان .1985. 178/1.

[3]- الفصل في الملل والنحل المرجع نفسه-178/1.

[4]- فجر الإسلام . أحمد أمين (دار الكتاب العربي –بيروت- ط1969،10) .ص/24.

[5]- المرجع نفسه . ص:25.

ج-تواجد الديانة اليهودية بأرض العرب:

يصعب نسبة دخول اليهود أرض العرب إلى سنة معينة ترتبط بحادث واحد معين ، إلا أن تحديد القرن الأول والثاني الميلادي لزمن هذه الهجرة يتسع لهذا الحدث . بينما يجمع المؤرخون عل أن سبب هذه الهجرة أمران : ضيق فلسطين باليهود، وصعوبة الرزق بها ،والضربة التي وجهها الرومان لهم فقضت على كيانهم. وعلى كل فقد جاء اليهود إلى أرض العرب أعقاب هذين السببين ، فسكنوا يثرب وفَدَك وخيبر وواد القرى . »[1].

وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : « بني النضير ، بني قينقاع ، بني قريظة. واشتغل بعضهم بالتجارة والربا وبعضهم بالصناعة، وبعضهم بالزراعة. وتعلموا اللغة العربية، وصار لهم أنصار وحلفاء، ومركز قوي بين العرب ديني، واجتماعي واقتصادي وثقافي ..»[2] .

وأما عن تواجد اليهودية كديانة بأرض العرب فإن « اليهودية حلت بـــأرض العرب بعد أن تأثرت بالفلسفة اليونانية تأثرا كبيرا ؛لأنها ظلت قرونا تحت الحكم الروماني واليوناني ، ولأنها كانت منتشرة بالإسكندرية. »[3]. وقد أدى هذا بالأحبار الأوائل إلى أن اقتبسوا من الوثنية اليونانية فكرة التجسيد للإله، الذي تقرأ نصوصا كثيرة في التوراة تجعل الإله ينزل إلى الأرض لفرض إرادته، ويصارع وربما انهزم بزعمهم[4] .. كما نقرأ أثر هذه الفلسفة في بعض مقولات الأحبار والفرق مثل ما رأيناه حول إنكار البعث، أو أن البعث روحاني دون الجسم . وهذا ولا شك أن هذا كان قسما مهما من تراث اليونان الفلسفي[5].

1- سيرة الرسول . محمد عزة دروزة /120.

2- فجر الاسلام المرجع السابق /25.

3 - فجر الاسلام .المرجع نفسه . /25.

4 - انظر: مصادر التوراة .عبد المجيد همو .مركز غار حراء .دمشق.ط:01-1999. ج1/257.

5 - انظر / دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية .سعود بن عبد العزيز الخلف (أضواء السلف – السعودية- ط:01 -1997) /121 .

ثانيا-النصارى:

النصارى جمع واحده النصراني. والنصراني هو من اعتنق النصرانية دينا ، ففي منجد اللغة والأعلام نجد تحديدا للمعنى، والتسمية بهذه الكلمة،وما اشتق منها فـ « النصراني يجمع على نصارى، نسبة إلى مدينة الناصرة على غير قياس. من يتبع دين السيد المسيح.والنصرانية دين النصارى.» [1].

وبتحديد أكثر يتضح أن « النصرانية في الاصطلاح هم الفرقة التي أقرت رسولية بولس، وقبلت إلهية المسيح بدعوى أنه مولود من مريم العذراء ، وكانوا يقرون النسخة العبرية لإنجيل متى، ولكنهم حافظوا على ناموس موسى وشريعته . » [2].

والكلمة لها مرادف وهو المسيحية. وهذا المرادف متأخر حسبما يبدو عن الاصطلاح الأول فقد « وضع تعبير المسيحي لأتباع عيسى لأول مرة في مدينة إنطاكية في سوريا » [3].ومنهم من يحدد ذلك بسنة **42**ميلادية [4].

والقرآن الكريم يورد هذه التسمية علَما على أتباع السيد المسيح فقد ورد في غير ما موضع

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾البقرة62.

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ البقرة113 .

- ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ البقرة120 .

---

[1] - منجد اللغة والأعلام ، مجموعة مؤلفين . دار المشرق –بيروت– ط: **31** . **1991**.)/**812**.

[2] -حكمة الأديان الحية ، جورييف كاير ، تـ: حسين الكيلاني (مكتبة الحياة –بيروت–(بدون تاريخ)/**55**.

[3] - المرجع نفسه /**55**.

[4] - دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية . المرجع السابق. / **121**.

- ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ المائدة18 .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المائدة51 .

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ المائدة69 .

- ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ المائدة82 .

- ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ التوبة30 .

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ الحج17 .

- ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران52 .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ الصف 14 .

ومن الباحثين من يفرق بين المصطلحين :

- فالنصارى يرون عيسى المسيح المنتظر " الذي بعث لإصلاح الدين اليهودي وتنقيته من الخرافات والانحرافات التي لحقت به عبر القرون "[1] .

---

[1]- المسيحية والاسلام والاستشراق ، محمد فاروق الزين (دار الفكر ، دمشق ، ط :01 ، 2000)/104.

- وعلى هذا فـــ« المسيحية مع أن عقائدها ناقضت معتقدات اليهودية بشكل سافر وخاصة لجهة تأليه المسيح والإعتقاد بالثالوث المقدس ، فإن المؤسسة الدينية اليهودية لم تصم المسيحيين بالهرطقة ، ربما لأنها اعتبرت المسيحية ديانة جديدة لا علاقة لها باليهودية أصلا ولا متفرعة عنها »[1] .

أ-مجمل الديانة النصرانية:

رأس الديانة النصرانية وأهم قضاياها هي طبيعة المسيح. ذلك أن المسيحيين الأوائل قبل ظهور **بولس**، لم يخرجوا المسيح عن طور البشرية،ومقام العبودية لله تعالى، ومنهم الحواريون والرسل الذين كان يبعثهم السيد المسيح يبشرون بالديانة الجديدة.غير أن المجامع المتلاحقة بعد طول خلاف، ونزاع قررت إلحاق المسيح برتبة الألوهية، فوقع بسبب ذلك الاختلاف العظيم في تفسير الطبعة الجديدة للمسيح عليه السلام .

فالفرقة الملكانية وهي من أهم الفرق النصرانية « ترى أن الابن هو المسيح بعد أن اتحدت كلمة الله بجسد المسيح، ورأت أن القتل والصلب قد وقعا معا على الناسوت واللاهوت.
والنسطورية منهم ترى أن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة ليست أزلية ، وأن مريم ولدت إلها لا إنسانا.بينما اليعاقبة أصحاب الطبيعة الواحدة ، انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو. »[2].

وربما قيل في تعليل هذا الاختلاف أنه « في العصور المسيحية الأولى كان كثير من الآباء فلاسفة، قبل أن يكونوا رجال دين، لأنهم رأوا من الضروري أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين، فلجأوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليل، والبرهان فتسربت إلى النصرانية فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرها. »[3].

---

[1]- المرجع نفسه /105.

[2] - دراسات في علم الكلام والفلسفة . يحي هويدي .دار الثقافة للنشر .مصر .1979. / 60-70.

[3] -فجر الإسلام، أحمد أمين ./28.

ومن ثم أصبحت « عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهي أصل الدستور الذي بينه **المجمع النيقاوي** ، هي الإيمان بإله واحد ، أب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد ، ويسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر الذي به، كان كل شيء ، والذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس وتألم، وقبر وقام من الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه، والإيمان بالروح القدس الرب المحي المنبثق من الأب ، الذي هو مع الابن يسجد له، ويمجد الناطق بالأنبياء . »[1].

أما الشرائع فإن المسيحيين اللاحقين عندما بشروا بالديانة الجديدة حذفوا كثيرا من الأحكام؛ لما رأوها تشق على المدعويين خصوصا، من رعايا الدولة الرومانية مثل الختان، فراعى المشرع في زمنهم تغيير هذه الأحكام الثابتة عن السيد المسيح — والناس قريبو عهد بنبوته عليه السلام — إلى أحكام بديلة عنها لا تشق على المدعويين،وهو أمر ثابت تاريخيا.

وهكذا غيروا من أجل رضا الوثنيين ، أو قل تأثرا بهم جملة من التعاليم، حيث أنهم قاموا فـ«حصروا المحرم على الأمم في أربعة : الزنى وأكل المخنوق وما ذبح الأوثان ..»[2].

بينما الصوم عندهم « اختياري ، أما الصلاة فلها ركنان ، أن تقدم باسم المسيح وأن يسبقها الإيمان الكامل. وللمصلي أن يأتي بأي عبارة بشرط ألا تخرج عن الصلاة الربانية التي علمها المسيح للناس.»[3].

وبدل أن يثبتوا أمام الوثنية ليردوها إلى الحق ركنوا إليها؛ فلذلك تمسهم النار ويحيق بهم البوار.ويلخص الشيخ محمد عبده* تعاليم النصرانية في مجموعة أصول كبيرة نلخص ما قال هنالك لطوله مع المحافظة على المقصد قدر الإمكان منها :

---

[1] – محاضرات في النصرانية . محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي –القاهرة– ط:3، (بدون تاريخ)/91.

[2] – محاضرات في النصرانية . المرجع نفسه . 108.

[3] – راجع : محاضرات في النصرانية . نفس المرجع /102–103.

- **الخوارق** : أول أصل قام عليه الدين المسيحي ، وأقوى عماد له هو خوارق العادات، تقرأ في الإنجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه، إلا ما كان يصنع من الخوارق .

- **سلطة الرؤساء الكهنة**: فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك وإذا قال إنه مسيحي فاز به . ففي الإنجيل « أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، كل ما تربطه في الأرض يكون مربوطا في السماوات ،وكل ما تحله في الأرض يكون محلولا في السماوات . » (متى **19/16**).

- **ترك الدنيا** : وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة .» لا تقدرون أن تخدموا الله والمال لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم.» (متى**25/16**) . وفي نص آخر» الحق أقول لكم :إنه يعسر أن يدخل غني ملكوت السماوات. » (متى**23/19**).

- **الإيمان بغير المعقول**: الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها. وأن من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به .

-**الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد** :كان متعلقا بالاعتقادات الدينية، والآداب النفسية والأعمال البدنية، مما يؤدي إلى نيل السعادة في الملكوت الأعلى، أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الإنساني أن يتمتع بها.»[1].

• - **محمد عبده بن حسن خير الله من كبار دعاء الإصلاح الحديث ولد 1849بمصر ودرس بالأزهر ولما جاء جما الدين الأفغاني لازمه وتأثر به ، درس بدار العلوم ، وشارك في الثورة العرابية فنفي بعدها إلى الشام ، وسافر إلى باريس مع الأفغاني حيث أصدرا مجلة العروة الوثقى . وعاد بعدها إلى مصر فتقلد منصب الإفتاء ، وسعى إلى إصلاح التعليم . وتوفي بعد حياة حافلة بالعلم والعمل 1905.راجع معجم المفسرين 2/566-567. عادل نويهض .**

[1] - **الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية .محمد عبده . دار الحداثة-بيروت-ط:02. 1983. /29-37 .بتصرف .**

ب-أهم الفرق النصرانية:

لم تقم قراءة نص الإنجيل الذي تركه السيد المسيح في أتباعه بفرز الفرق الدينية في النصرانية بوضوح، كما رأينا ذلك في الفرق اليهودية، بل كان العامل الأساسي في تكوين هذه الفرق هو طبيعة المسيح ذاته، والنهاية التي ختمت بها حياته عند مختلف فرق المسيحيين كما يعتقدون .

ومن ثم تقوم هذه الاعتبارات بتكوين النص؛ حتى أنه من المؤكد أن إنجيل يوحنا وضع خصيصا لأجل القول بألوهية المسيح « لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح ،فهذه الألوهية يعتبر هو نص إثباتها وركن الاستدلال عليها .»[1]. وتأتي النصوص من بعد ذلك يستأنس بها كل فريق .

- أثار غموض شخص المسيح إلى التطرف في اعتقاد حقيقتة ميلاده ، ونسبه ووظيفته ، ووفاته فبينما " المسيح إنسان ولد من إنسان " ، فهو ابن مريم ، وابن يوسف النجار الذي سافر كما تقول الرواية بمريم زوجته إلى حيث يطمئن على حياتها .هذا عند طائفة .

- ويرى آخرون أن " المسيح شخصان وطبيعتان، لهما مشيئة واحدة ".وواضح من هذا التحديد شدة الغموض لدى هذه الطائفة ..وبالتالي " ميزوا بين الآب والابن وأثبتوا التثليث ، والمسيح قديم أزلي " .

- وأما اليعقوبية كما سيأتي فقد شاع عندهم " القول بالطبيعة الواحدة ونفي بشرية ابن الله المتجسد " ، وحملوا على غيرهم يغلطونهم فيما ذهبوا إليه من العقائد ، والأقاويل ، ولا شك أن هذا كرس شدة الاختلاف بينهم ..

ونحن نعرض لأهم الفرق في الديانة النصرانية مقتصرين على مذهب كل فرقة حول الله تعالى وطبيعة المسيح ومكانه بين الإنسانية والألوهية خصوصا ما كان منها زمن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، إذ أن الآيات قامت ترد عليهم وتصحح ما ذهبوا يعتنقونه من العقائد في شأن المسيح من هو ، وما نسبه ، وما المهمة التي بعث لأجلها ، وأخيرا أمر موته ، وقد قام حول ذلك كله جدل كبير ، وضح القرآن وجه الحق فيه .

---

[1] - **محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة /46.**

ونتطرق من الفرق إلى ما يلي :

1-النسطورية :

أتباع نسطور بطريق الكنيسة الشرقية (ت**451** م) بمصر . ومجمل اعتقادهم الذي يتميزون به عن غيرهم من بقية الفرق المسيحية أن « الكلمة تجسدت في المسيح لا على سبيل الامتزاج، وإنما كإشراق الشمس على بلور ..»[1]. وعلى رأيهم « فالمسيح إنسان ولد من إنسان،ولكن النعمة الإلهية التي اتصلت من قبله اتصالا مؤقتا اتصلت به هو اتصالا دائما،مع بقاء الكلمة الإلهية مباينة للطبيعة البشرية والناسوتية .. »[2].

وأما قضية صلبه ففي زعمهم إنما « وقع القتل على الناسوت دون اللاهوت، الذي لا تحل به الآلام ، ومريم هي أم المسيح الإنسان ، وقد سمي ابن الله على سبيل التبني،أو بالأحرى على سبيل النعمة لا الولادة أو الاتحاد ..»[3].

وهذا النص يوضح مدى ما كانت هذه الفرقة تعانيه من رد الإلزامات من الخصوم ، كمسألة على ماذا وقع الألم افصد ألم الصلب ، وما الذي يتعلق من المسيح بأمه مريم ، وما علاقة الله تعالى عند من يقول بألوهية المسيح الإنسان .

وبسبب من هذه المفارقة الشديدة لغيرهم من الطوائف النصرانية، وبسبب من مسيحيتهم أيضا « اتجه النساطرة شرقا بعد اضطهاد الدولة الرومانية لهم، واحتضنتهم دولة الفرس لأسباب سياسية ..»[4]، ليس ههنا محل شرحها.

وواضح من هذه التقريرات مدى تأثر صياغة هذه العقائد بالفلسفات السائدة، وبالمباحث الفلسفية عموما التي كان الأتباع الجدد للنصرانية قد تأثروا بها بعد أن جاء بها السيد المسيح بيضاء نقية من كل شرك وتعقيد ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[5].

---

[1] – في علم الكلام (المعتزلة) أحمد محمود صبحي(دار النهضة العربية–بيروت–ط05،1985). 55/1.

[2] – المرجع نفسه ، 55/1.

[3] – المرجع نفسه 55/1.

[4] – المرجع نفسه 54/1.

[5] – الآية 46 سورة المائدة .

ويلخص ابن قيم* عقيدة هذه الفرق فيقول : « المسيح شخصان وطبيعتان، لهما مشيئة واحدة وأن طبيعة اللاهوت لما وجدت بالناسوت صار لهما إرادة واحدة . واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصانا، ولا يمتزج بشيء ، والناسوت يقبل الزيادة والنقصان ، فكان المسيح بذلك إلها وإنسانا. فهو الإله بجوهر اللاهوت لا يقبل الزيادة والنقصان، وهو إنسان بجوهر الناسوت الذي يقبل الزيادة والنقصان .»[1].

2-الملكانية:

نسبة إلى مَلْكَا الذي ظهر بأرض الروم ، بينما هو عند ابن قيم* نسبة إلى دين الملك،وهو الروم . ومن ثم أصبحت الملكانية العقيدة الرسمية للدولة الرومانية .

فقد اعتقدوا أن الكلمة قد اتحدت بجسد المسيح ، وتدرعت بناسوته ، وليس هذا الاتحاد تاما إنما مازجت الكلمة جسد المسيح كما يمازج اللبن الماء . »[3].

ولا اتحاد عندهم بين الجوهر والأقانيم، أو بين الصفة والموصوف،بل بينهما تميز،ومع ذلك فالواحد قديم تماما كالمسيح. فقد قالوا : « بأن الجوهر غير الأقانيم كما أن الموصوف غير الصفة ، وبذلك ميزوا بين الآب والابن وأثبتوا التثليث ، والمسيح قديم أزلي . »[4] .

---

*-محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين ، المعروف بابن قيم الجوزية من كبار فقهاء الحنابلة ، محدث مفسر متكلم جدلي مشارك في بعض العلوم ولد بدمشق (691هـ/1192م)، ولازم ابن تيمية وتخرج به ،قال ابن حجر : وهو الذي هذب كتبه ، ونشر علمه ، واعتقل نعه في قلعة دمشق بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة ، وأفرج عنه بعد موت ابن تيمية ، فتصدر لنشر العلم . ومات بدمشق . من كتبه "تفسير المعوذتين "طبع مرارا ، وتفسير الفاتحة . وقد جمع بعضهم تفسيره من مختلف كتبه ورتبه "التفسير القيم ".

[1]-هداية الحيارى ، ابن قيم الجوزية /332.

[2] - دراسة في علم الكلام (المعتزلة). احمد محمود صبحي .55/54/1.

[2] - المرجع نفسه 54/1.

[3] - المرجع نفسه . /54-55.

[4] -هداية الحيارى ، ابن القيم ./330-331 ...

فالقديم عندهم متعدد،والتثليث حقيقي ، بالتفريق بين الجوهر والأقنوم ،والتمييز بين الآب والابن،وهذا مثال واضح للخبط الذي وقع فيه النصارى بسبب تأليههم لعيسى وهم يرونه حيا بينهم مع أمه ثم يموت-حسب زعمهم- موت الضعفاء لا موت الآلهة.

ويلخص ابن قيم مقالتهم : « إن الابن الأزلي الذي هو الكلمة تجسدت من مريم تجسدا كاملا كسائر أجساد الناس، وركبت في ذلك الجسد نفسا كاملة بالعقل، والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس ، وأنه صار إنسانا بالجسد والنفس ، اللذين هما من جوهر الناس .وإلها بجوهر اللاهوت كمثل أبيه لم يزل ،وهو إنسان بجوهر الناس ..وهو شخص واحد لم يزد عدده وطبيعتان ، ولكل واحدة من الطبيعتين مشيئة كاملة ، فله بلاهوته مشيئة مثل الآب ، وله بناسوته مشيئة إبراهيم وداود .» [1].

وكثرت المقولات عندهم،حتى ربما تناقضت أو صارت على الأقل غير مفهومة لغموضها. ومما يقولون أن المسيح إله بجوهر اللاهوت،وإنسان بجوهر الناس.وليس على المسيحي في سائر الأزمنة أن يتكلف الفهم لهذا اللغز ما دام أن الإيمان فيما يعلمونه الناس يبنى أساسا على التسليم، وليس من الضرورة أن نفهم كل شيء .

وقد أدت هذه المقولة الآثمة من أن الأديان لا تخضع لمنطق العقل إلى جر كثير من الويلات على جملة الأديان السماوية بدعوى مناقضتها العقل، وحجرها على العلم والتقدم العلمي ..والتاريخ شاهد على آثار ذلك.فتم بذلك وضع قائمة الأديان والمبادئ الدينية في قفص الاتهام في القرون المتأخرة،وتم بذلك عزلها عن دنيا الناس . وحلت محلها مذاهب الإلحاد وفلسفات العبثية والعدمية، ونالت البشرية صنوف الأذى بسبب من ذلك.

---

[1]- هداية الحيارى. المصدر السابق /331.

3-اليعـاقبة:

ذهب التطرف بهذه الفرقة كل مذهب، فالمسيح عندها إله، وفصلوا في مسألة الطبيعة،فهي عندهم واحدة،وهي طبيعة إلهية لا شك فيها.مخالفين بذلك النسطورية أشد المخالفة فمريم بزعمهم تكون قد ولدت الإله. فهو إله برغم كل ما حدث له، مما يحدث لأضعف الخلق ممن يفقدون النصير والظهير.

ولا ريب أن التعصب يفعل بصاحبه هذا وأكثر، خصوصا وأن المجامع التي كان يقرر فيها مثل هذا المذهب الرديء كما يحكي التاريخ، قد تدخلت فيها السياسة بمفهومها السلبي - وهي تغيير النص الديني لصالح الأطراف المتنفذة - ولعبت الأهواء بهم كل ملعب .

نسبة هذه الفرقة النصرانية إلى يعقوب البرادعي، وقد « تطرفوا في العداء لنسطور تطرفا أدى بهم إلى القول بالطبيعة الواحدة ونفي بشرية ابن الله المتجسد؛ ولذا يسمون بأصحاب الطبيعة الواحدة ، ولا مانع عندهم من أن تقبل الطبيعة الإلهية-التي يجب أن تتنزه عن الحلول والظهور وسائر أوصاف التحيز- التجسد والظهور في مظاهر الضعف،والتغير وعموما النقص في الطبيعة البشرية . »[1].

كما أن هم يرون « أن الطبيعة الواحدة والشخص الواحد هو المسيح،وهو إنسان كله،وإله كله، ويقولون أن مريم ولدت الله، وأن الله سبحانه قبض عليه وصلب وسمر ومات ودفن ثم عاش بعد ذلك. »[2]. وما دام الإيمان لا يتطلب شرحا منهم،ولا فهما من الاتباع فلا حرج عليهم في الدعوة لهذه المقولات السخيفة. التي هي أحد المهازل التي يتندر بها العصريون من الغربيين خصوصا على الأديان وأتباعها .

واعتقادي أن الأجيال الجديدة من المسيحية ستعيد طرح أسئلة الاستيضاح من جديد حول طبيعة ومصداقية هذه الإجابات الدينية عند هذه الفرقة خاصة ، مع ما يكتنفها من الغموض الشديد ، حول أهم وأعظم عقيدة تبنى عليها هذه الديانة وهي طبيعة المسيح ، وما حدث له من الصلب ثم خبر قيامته من بين الأموات .

---

[1] - في علم الكلام (المعتزلة). احمد محمود صبحي. **56/1**.

[2] - الرسالة القبرصية. عبد الحليم بن تيمية . دار ابن حزم – بيروت- ط:**03** . **1997** . ص:**34**.

ج-تواجد النصارى بأرض العرب:

ليس يعرف كما قلنا عن اليهودية بالضبط، التاريخ الذي يمثل انتقالا ظاهرا لفرقة ما من فرق المسيحية، بظروف خاصة إلى أرض العرب . غيره أنه من المرجح أن في أعقاب القرن الثاني، وبداية القرن الثالث يكون بعض كبار الرهبان قد اهتموا ببلاد العرب يبشرون فيها بالدين الجديد. وكذا كان اتصال العرب بالشام من زمن مبكر، قد مكن من معرفة المسيحية عن كثب، والإطلاع عليها زمن النشأة الأولى، والأدوار الأولى في التكوين.

ترك هذا الاتصال انطباعا أوليا في قلوب العرب الآفاقيين، ممن لم يؤمن بها، وربما تأثر بعضهم فنقل الدين الجديد إلى أرض الجزيرة . ومن مجموع الفرق النصرانية يكون قد تسرب إلى أرض العرب فرقتان كبيرتان كان لهما الأثر الواضح ، « هما النساطرة و اليعاقبة.فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة،واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام.كذلك كانت هناك صوامع في واد القرى.»[1].

ومن المناطق المشهورة بوفادة النصارى إليها مدينة نجران .وقد ذكرت كتب السيرة خبر وفد نجران الذين جادلوا رسول الله ﷺ في شخص المسيح[2] ..

وظهر أثر التنصر فيمن عرف في تاريخ العرب بالرهبنة وبناء الأديرة «واتصل عرب الحجاز في مكة والطائف بأهل الحيرة فعرفوا عنهم النصرانية ، أما اليمن فقد عرفت النصرانية في نجران حتى قبل غزو الأحباش لها ، لكن تمكنت معرفة عرب اليمن بالنصرانية بخاصة بعد غزو الأحباش لها في اليمن، علاوة على الكنيسة التي كانت موجودة في نجران قبلهم ، كنيسة في صنعاء ، وأخرى في ظفار وثالثة في مأرب. »[3].

---

[1] - فجر الاسلام . أحمد أمين .ص:25.

[2] - انظر في ذلك هداية الحيارى /58.

[3] -- دراسات في علم الكلام والفلسفة ، هويدي يحي ./67-68.

المبحث الثالث

موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم .

كانت الديانتان السابقتان على الإسلام تستشرفان مجيء نبي جديد، ينقذ الناس من هذه الوهدة من التردي في العلم والعمل . وقد كانت كتبهم –وهم أعلم بذلك– قد تحدثت بإطناب عن قرب زمان مبعث نبي خاتم ، تجتمع حوله القلوب، ويكون له من النصر ما لم يحزه غيره ، ولم يبعث بعد موسى مثله ، وقد حدد بالبشارات المتكاثرة مكان بعثته وقومه وبعض أوصافه ، وما يأتي به من الشرائع ؛ فتطلعوا إلى مقدمه . وبكر بالهجرة أقوام منهم خصوصا اليهود يستعجلون ظهوره .

فقد حكى القرآن أن يهود المدينة ، من بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة كانوا يستفتحون على عرب المدينة من الأوس والخزرج بقرب زمان نبي يبعث يسبق إليه اليهود ويقاتلون معه العرب قتل عاد وإرم ، ففي سورة البقرة : ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ الله على الكافرين بِئسَما اشتروا به أنفسَهم أن يكفروا بما أنزل بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاءُ من عباده . . ﴾ [1].

قال ابن قيم: « وهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد -ﷺ- ، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهورهم؛فيفتح لهم وينصرون ، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته . فاستفتاحهم به،وجحد نبوته لا يجتمعان. فإن كان استفتاحهم به؛ لأنه نبي كان جحد نبوته محالا،وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقا، كان استفتاهم به باطلا . فان كان استفتاحهم به حقا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلا فاستفتاحهم به باطل. » [2].

---

[1] – الآية 90 سورة البقرة.

[2] – انظر في ذلك : الضوء المنير على التفسير ، جمع علي الحمد المحمد الصالحي. (مؤسسة النور للطباعة والتجليد ومكتبة دار السلام –الرياض–بدون تاريخ)226/1.

أما النصارى ففي خبر[1] سلمان الفارسي* أن بعضا من كبار المتدينين الذين لقيهم قد دلوه على قرب المبعث، وزمن النبوة والمهجر ؛ مما سهل عليه الوصول إلى المدينة.وهذا كله لا يكون إلا بوجود علم سابق بذلك منهم، قد تيقنوا صدقه في كتبهم ، وأنه مما لم تصل إليه يد التحريف؛ إذ القرآن يرد الباحث من أهل الكتابين إلى منصوص كتبهم حول البشارات بالنبي الخاتم، زيادة على ما جاء به من المعجزات.

ففي سورة الأعراف ورد قوله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، فهو النبي الذي كانوا يوعدون، ولطالما انتظروا ظهوره، وبشروا الناس بذلك كثيرا، وربما هددوا أعداءهم ببعثته على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

نجد في أسفار العهد القديم مجموعة من النصوص في ذلك نورد منها نصا، ففي سفر تثنية الإشتراع ما نصه : « قال لي الرب أحسنوا فيما تكلموا ، سوف أقيم لهم نبيا من أوسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلم بكل ما يوصيهم به ويكون الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به أنا أطالبه . ». سفر التثنية (**18 : 17-18**). و في تفسير المنار « ومعلوم أنه لم يبعث بعد موسى نبي مثله في نبوته ، أي أنه صاحب شريعة مستقلة غير محمد صلى الله عليه وسلم»[3].

---

[1] – انظر الخبر في : هداية الحيارى ، ابن قيم الجوزية ./62.

* – سلمان الفارسي المشهور بالفضل والصحبة ، قصته مشهورة في طلب الدين اشترى نفسه من مواليه من اليهود توفي 36هـــانظر: شذرات الذهب.ابن عماد الحنبلي.دار المسيرة .بيروت .ط:02. 1979. 44/1.

[2] – الآية 157 سورة الأعراف .

[3] – تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار .محمد رشيد رضا.دار المعرفة .لبنان. ط: 2 (ب.ت) 381/1.

روى أبن إسحاق* عن أشياخ من الأنصار أن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة ، قالوا كنا قد علوناهم دهرا في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب. وهم يقولون : إن نبيا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم[1] ..

قال الشيخ محمد رشيد رضا*:«وكانت اليهود تستفتح على مشركي العرب بالنبي المنتظر أنه سيظهر فينصر كتابُه التوحيدَ الذي نحن عليه، ويخذل الوثنية التي تنتحلونها ويبطلها ، فيكون مؤيدا لدين موسى» [2]. وإنما كفروا كما هو ظاهر من تعليل الآية ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾، أي كفروا به لمحض البغي ؛ الذي أثاره الحسد أن يترل الله الوحي من فضله بمقتضى مشيئته. وأي بغي أقبح من بغي من يريد أن يحجر على فضل الله وقيد رحمته؛فلا يرضى منه أن يجعل الوحي في آل إسماعيل كما جعله من قبل في آل إسحاق؟

وقال تعالى أيضا:﴿ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. وقد قال الشيخ محمد عبده في ذلك : « ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم ، أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله ، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءا منه، وهو ما يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبن صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه. »[4].

وقال في موضع آخر : «ولا فرق في هذا الحكم بين اليهود والنصارى ، فكل منهم مبَشر بالنبي صلى الله عليه وسلم في كتابه، وكل منهما قد نبذ كتابه فلم يعمل به . ولم يضر النبيً

---

* – محمد بن إسحاق المطلبي صاحب السيرة وثقه الأكثر ون و عنه أخذ عبد الملك بن هشام و كل من ت في السيرة توفي ببغداد سنة 151 هـ راجع : شذرات الذهب 230/1 .

[1] – تفسير المنار .محمد رشيد رضا.دار المعرفة .لبنان. ط: 2 (ب.ت)ج 381/1.

* – محمد رشيد رضا من دعاة الإصلاح والتجديد ولد ونشأ بالقلمون 1879مورحل إلى مصر 1902م فأنشأ مجلة المنار ولازم بها الشيخ محمد عبده ، له تفسير المنار ولم يكمله ، ومجلة المنار .. توفي 1935م. راجع معجم المفسرين 529/2.

[2] – تفسير المنار . نفس المرجع .397/1.

[3]– الآية 101 سورة البقرة .

[4] – تفسير المنار . نفس المرجع 397/1

صلى الله عليه وسلم هذا الجحودُ ؛ لأن دعوته قد قبلها الآخرون ، واهتدى بها من لا يحصى من الأمتين . »[1].

ولسيد قطب* كلام ننقله بطوله لأهميته : « وهذه الطبيعة التي تبدوا هنا في يهود هي الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التي يحيا في نطاق من التعصب الشديد ، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى التي تربط البشرية جميعا. هكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ويتربصون بالبشرية الدوائر، ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد ؛فتنا يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض ، وحروبا يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم ، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفئ »[2].

وبهذا الكنود الشديد جابه أهل الكتاب -يهود ونصارى- الرسالة الخاتمة بالإعراض ، والنبي الجديد بالتكذيب ، يدعون أنه نبي العرب خاصة ،كما قال فريق منهم ، وأن ما معه من الشرع لا نسخ فيه لما هم عليه من الدين والشريعة .

وقد كان هذا الموقف منهم أوليا ، وإلا فإنهم قد تعدوه خصوصا اليهود إلى الوقوف بجانب الكفار بالمال والرأي ، كلما تأهب هؤلاء للقتال، يزينون لهم ما هم عليه من الضلال والكفر ، ويكتمونهم الحق الذي عندهم من بطلان الشرك . ولما لم يكفهم ذلك قالوا لهم في غير مرة ، بأن ما أنتم عليه من الوثنية والشرك خير مما جاء به محمد ومن تبعه ﴿ *ويقولون هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلا* ﴾[3]، كما سيأتي مفصلا في محله تعليقا على هذه الآية الكريمة ، ويسعون إلى تشتيت الصف المسلم بالإشاعات الكاذبة ، وكتمان المكتوب الأول عندهم ، وتأويل البشارات السابقة

---

[1] – تفسير المنار .المرجع السابق . **397/1**.

• – **سيد قطب بن إبراهيم مفسر وكاتب وأديب إسلامي ولد بإحدى قرى أسيوط 1906. وتعلم بدار العلوم له تفسير في ظلال القرآن ، ن شهداء الحركة الإسلامية 1966م. راجع معجم المفسرين 21/1.**

[2] – **في ظلال القرآن ، سيد قطب (دار الشروق –لبنان–ط:09. 1980. 90/1.**

[3] – الآية **51** سورة النساء .

، بصرفها إلى غيره من البشر بدون حق وهم يعلمون ذلك ، خصوصا لما رأوا من تظاهر أمره وانتشار دعوته وبالمقابل كساد أمرهم وفساد سعيهم.

وقد حكى القرآن هذا الموقف ، وأردفه بالتعليل الباعث له ، وذلك قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1]، فهو « بيان لما يضمرونه، وتكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام، التي عرفوا أنها الحق،وأن وراءها السعادة في الدارين ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا من هذه النعمة ، ويرجعوا كفارا كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده ولو لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت،وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه،وإدخاله تحت سلطانه،كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل.» [2].

وفي موضع آخر: « وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس، من الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون . وكل هذا كان عن علم منهم لا عن غير علم .» [3].

وكلما نسخت أحكام من الحياة المسلمين اليومية وجدوا في ذلك فرصة زائدة لمزيد التشكيك في أحقية هذا الدين ، ويقولون لو كان من عند الله ما نسخ ، ويحجرون على إرادة الإلهية أن تخص بالتشريع المعين زمانا دون زمان، ومكانا دون مكان ، مما هو من قبيل التدرج ومراعاة ظروف المكلفين لحظة التشريع .

ونحب أن نؤكد هنا أن الهدايات إذا لم تحط بالعمل بها والنشر لها فلا تنفع صاحبها ، فكيف إذا كان قد حل محلها ضلال مبين : « لقد كان أهل الكتاب يملكون أول أمرهم ثروة طائلة من هدايات الله ، بيد أنهم على مر القرون أخذوا يفقدون غناهم ، ويتحولون عن مكانتهم ، حتى إذا بلغوا عصر البعثة كان الإفلاس قد حاق بهم » [4].

---

[1] – الآية **109** سورة البقرة .

[2] –تفسير المنار، محمد رشيد رضا. **420/1**.

[3] – في ظلال القرآن ، سيد قطب **102/1**.

[4]– نظرات في القرآن . محمد الغزالي . دار الشهاب . الجزائر . (بدون تاريخ) /**189**.

المبحث الرابع

موقف القرآن الكريم من أهل الكتاب

يميز الباحث في القرآن من خلال حواره لأهل الكتاب، بين حوار الفترة المكية وحوار الفترة المدنية، كما يميز بين جداله لليهود وحواره للنصارى. ففي العهد المكي يكتفي القرآن بالكلام عن بني إسرائيل ، وما كان منهم اتجاه أنبياء الله ، وكتبه المترلة وعهوده الموثقة معهم ﴿أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريقٌ منهم بل أكثرُهم لا يُومنون ﴾[1]، مكثفا الحديث معهم حول شدة تملصهم من عهود الأنبياء، واختلافهم على رسل الله، وما زادوه بأهوائهم على أصل الدين الحق، مما سماه القرآن الكريم تحريفا وتبديلا ﴿يحرفون الكلمَ من بعد مواضعه ﴾[2].

كما يذكر القرآن بما خص الله به بني إسرائيل من النعم الظاهرة، وما أقامه عليهم من الحجج الدامغة، وذلك قوله في الأولى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[3]، وقوله تعالى في الثانية ﴿ وءاتيتهم من الآيات ما فيه بلاءٌ مبينٌ ﴾[4]. وتكلم القرآن غير مرة عن البشارات الموجودة في كتب الفريقين في شأن النبي الخاتم .

وأما في خصوص النصارى فقد أدرج الحديث عنهم في عموم الحديث عن أهل الكتاب ، وإن كان قد لمس حقيقة المسيح عيسى عليه السلام، وأمه في البداية برفق ﴿ {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[5] ذلك لأن النصارى اصطبغ موقفهم عموما – حتى في العهد المدني – بالتحفظ غالبا، بحيث كانوا يكتفون بطرح أسئلة على النبي الجديد.و لم يكن لهم من التواجد المكثف كالذي كان لليهود لا

---

[1] –الآية 100سورة البقرة

[2] – الآية 41سورة المائدة

[3] – الآية20 سورة المائدة

[4] – الآية 33 سورة الدخان .

[5] – الآية 12 سورة التحريم .

فقط على مستوى المصالح الاقتصادية بل أيضا لم يكن لهم تواجد سياسي ، بحيث يسعون إلى ترجيح كفة قبيلة عربية على أخرى كما كانت اليهود تحرص على فعل ذلك ..هذا **أولا** .

وأما **ثانيا** فإن الرد عليهم لم يكن من الاهتمامات الكبرى للقرآن الكريم ؛ فقد كان الوسط المكي وثنيا يعم فيه الشرك ، ولم يكن تواجد أهل الكتاب ملفتا للنظر ، ولا كان في مواقفهم في مكة ما يدعوا إلى الاهتمام بالرد عليهم .

ويفسر بعض علمائنا ذلك أن اليهود المكيين لم يكن لهم من المصالح ما تهدده دعوته ، وجماعته المحدودة ، بخلاف المدينة فقد أصبحت له دولة وسلطة . « لم يلتق النبي محمد صلى الله عليه وسلم في موقف صراع في مكة ؛ فقد المجتمع المكي مجتمعا وثنيا مشركا .. »[1].

وفي موضع آخر«وربما نلمح في البداية تعاطفا وتقاربا بينه، وبين المجتمع النصراني في مكان آخر ، من خلال مشروع هجرة المسلمين المضطهدين إلى الحبشة. »[2].

بل إن القرآن الكريم يلمح إلى مواقف كريمة لبعض *النصارى* ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ.﴾[3].

وقد أرشد عليه السلام بعض أصحابه إلى الالتجاء إلى الصدر الرحيم، ملك الحبشة النجاشي النصراني . ومع ذلك فإن القرآن كما سجل اعتراف بعض من النصارى في العهد المدني بما في الرسالة المحمدية القرآنية من الحق فآمنوا بها وصدقوها ، وانضووا تحت رايتها سجل اعتراف بعض جماعات من اليهود في هذا العهد مثل ذلك ، استطاعوا أن يتغلبوا على أنانيتهم ومآربهم كما سيأتي.

وأما في المدينة فقد تكثف التواجد اليهودي بها، وكان لهم من المصالح ما استدعى رسول الله ﷺ إلى كتابة عهد مع اليهود، يمثل أرضية اتفاق،كان من الممكن استغلالها من طرف اليهود خصوصا؛ إذ فيها اعتراف بتدينهم الخاص، وحفظ مصالحهم ..لكنهم عاجلوا رسول ﷺ بالعداوة، فأعلنوا تكذيبه بعد شيء من التحفظ في أمره ووالوا الكفار ، وسارعوا إلى نشر

---

[1] – الحوار في القرآن ، محمد حسين فضل الله .. دار المنصوري للنشر، الجزائر .(بدون تاريخ) 1 / 117.

[2] – المرجع نفسه . 117/1.

[3] –الآية 27 سورة الحديد .

الكفر بين المسلمين بكتمان أوصافه ، والاعتراض على ما يشرع من أحكام ويطبق من أقضية . فشرع القرآن يرد عليهم بالملاطفة والملاينة حينا وبالتهديد حينا آخر .

من الملاطفة تذكيرهم بنعم الله على آبائهم ، وهي نعم عليهم في نفس الوقت ؛ لأن الإنعام على الأصل إنعام على الفرع ، بأن موسى كليم الله من شجرة واحدة مع محمد عليهما السلام هي شجرة النبوة ، وبما يناله الكتابي الذي يؤمن بالإسلام من مضاعفة الأجر له .

ومن التهديد زجرهم على الكفر برسالة محمد ﷺ وذلك قوله عز وجل ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾[1]: « أي ولا تبادروا إلى الكفر به، والجحود له مع جدارتكم بالسبق إليه .وهذا الاستعمال معروف في الكلام البليغ لهذا المعنى لا يقصد بالأولية فيه حقيقتها . »[2].

وكذلك فـ« إن تاريخ اليهود كله يقوم على هذه القاعدة ، رفضهم للحق وكراهيتهم له وحربهم له وكونهم أول كافر به. وما رأينا في التاريخ قوما يكرهون الحق كما يكرهه اليهود ولا قوما يحاربونه كما يحاربه اليهود ،ولا قوما يحرفونه كما يحرفه اليهود ، ولا قوما يلبسونه بالباطل كما يلبسه اليهود ، ولا قوما يؤذون أولياء الله وجنوده كما يفعل اليهود. »[3].

إن القرآن ينهاهم عن الكفر ببعض الكتاب، والإيمان ببعضه الآخر: ﴿*أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض.*﴾[4]، كما يوبخ أحبارهم ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[5]. وقد قرأوا في كتبهم جزاء من يعمل ذلك. كما احتج عليهم بإيمان بعضهم بالرسول الخاتم في حين صد عنه أقوام منهم بغير حجة تذكر.

وذلك قول الله تعالى في الآية ﴿*وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين.*﴾[6].ومن ضمن ما هددهم به، الغضب عليهم أن يكتموا الحق الذي أوتوه ، ويوالوا الكفار، و بما يسعون إليه فسادا في الأرض،وما يصرحون به مما لا يليق في حقه سبحانه وتعالى

---

[1] – الآية 41 سورة البقرة .

[2] –تفسير المنار، محمد رشيد رضا 291/1.

[3] –الشخصية اليهودية ، صلاح عبد الفتاح الخالدي..شركة الشهاب–الجزائر–ط1. 1987. 191/1.

[4] –الآية 85 سورة البقرة

[5] –الآية 44 سورة البقرة

[6] – الآية10 سورة الأحقاف .

من الصفات : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1]. وهكذا يكررون بإصرار مواقف أجدادهم متناسين ما حصل لهم من الشر المستطير؛ جراء مخالفة أوامر الله . ويعري القرآن اليهود من كل ستار؛ ليكشف عن نفسية خبيثة ، وداء قديم عز دواؤه.

وأما النصارى فقد اكتفى القرآن بالتطرق إلى أمور جوهرية ، منها بشرية عيسى عليه السلام ، وطهارة أمه مريم بنت عمران وذلك قوله تعالى: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين . ﴾[2] وقوله في الثانية : ﴿ ومريم بنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين . ﴾[3].

وكذلك تقرير وحدانية الله على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[4] ، وعمم الخطاب فيهم وفي اليهود بدعوتهم إلى كلمة واحدة ﴿ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[5].

فلم يسو القرآن في إذن في حملته على أصحاب الديانتين من اليهود والنصارى لفارق ما بينهما من الموقف ، وشدة العداوة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[6].

وإنما احتاج القرآن للرد على أهل الكتاب لأسباب منها :

---

[1] – الآية64 سورة المائدة .

[2] – الآية59 سورة آل عمران .

[3] – الآية 12 سورة التحريم .

[4] –الآية 72 سورة المائدة .

[5] – الآية64 سورة آل عمران .

[6] – الآية 82 سورة المائدة .

– ما سبق لهم من الكتاب، فهو بمثابة التذكير لهم، بما يقتضيه الإيمان من عدم الإيمان بالرسل ومن التبين قبل تحديد الموقف منه .كما أن المشركين كثيرا ما احتجوا لكفرهم بالإسلام ، بتردد أهل الكتاب في أمره ، مع ما لهم من علم إلهي يعترف القرآن بجزء منه ، فيجعلون كفر اليهود حجة لكفرهم، ودافعا للتكذيب . وقد كان في موقف اليهود هذا دعم لهم وصل إلى حد إضلال اليهود للمشركين ، في مثل قولهم : ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا .﴾[1].

– الرد على مزاعم أهل الكتاب بشرية القرآن وخصوصية نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للعرب ، وعدم نسخ التوراة والاعتراض المتكرر على سلوكيات الرسول والأحكام الشرعية ، مثل ما حدث في أمر القبلة: ﴿ما وليهم عن قبلتهم التي كانوا عليها .﴾[2] والسعي بالإفساد بين المسلمين ؛ تشتيتا لصفهم ولأجل اختلافهم على نبيهم مستعملين في ذلك جميع ما يعرفون من أساليب المكر والخداع خصوصا وقد كان منهم منافقون .

بل وصل الأمر إلى حد تقديم الإعانة للكفار ضد الإسلام . إلى جانب ما كان يصر عليه أهل الكتاب من ضلال في العقيدة، وانحراف في السلوك، ومعاداة مستمرة لبعض رسل الله وملائكته ، كما في قول الله تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، وقال القرآن تعقيبا و بعد هذا ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين .﴾[4].

في سيرة ابن هشام : « ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله العداوة ، بغيا وحسدا وضغنا لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره ، واجتماع قومه عليه ، فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جنة من القتل ، ونافقوا في السر ، وكانوا على هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبي وجحودهم

---

[1] –الآية 51 سورة النساء .

[2] – الآية 142 سورة البقرة .

[3] – الآية 97 سورة البقرة .

[4] – الآية 98 سورة البقرة .

الاسلام ، وكان أحبار يهود الذين يسألون رسول الله ص ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل فكان القرآن يتزل فيهم ، وفيما يسألون عنه إلا قليلا من مسائل الحرام والحلال كان المسلمون يسألون عنها » [1].

- تحديد نقاط الاتفاق بين الأديان الثلاثة ؛ لتكون أرضية تعايش وحوار بناء .كما تحدد نقاط الاختلاف والخلاف بينها، التي طالما عاشت بمنطق التعصب والتحامل، والمزايدة على الوحي؛ مما دفع بالقرآن إلى الحسم النهائي بشأنها باعتباره الوحي الخاتم ، والذي قد قام شاهد العدل على تصديقه ؛ لأجل أن تتبنى الأجيال اللاحقة الحقائق الكبيرة مصححة بكل من دليلي النقل والعقل.

- تلقين المسلمين في كل زمان ومكان الحجة على أحقية ما هم عليه من الدين ، أمام أتباع الديانتين اللتين ستبقيان تقتسمانه الأتباع إلى الأمد المعلوم . وقد أدى هذا فعلا إلى أن كان المسلمون على طول الزمان ،بمأمن من أخطار التهويد والتنصير ؛ بفضل ما كان مركوزا في عقولهم وقلوبهم، من براهين الإيمان ، وما كانوا يتقنونه علما من الخلل الواقع في الديانتين.

---

[1] - **السيرة النبوية . عبد الملك بن هشام .مكتبة الرياض الحديثة .(بدون تاريخ) 60/2.**

الفصل الثاني

القرآن ومحاجة أهل الكتاب بالدليل العلمي

القرآن ومحاجة أهل الكتاب بالدليل العلمي .

مباحث الفصل :

المبحث الأول : احتجاج القرآن بنصوص التوراة والإنجيل .

المبحث الثاني : احتجاج القرآن بدليل العقل .

المبحث الثالث: احتجاج القرآن بدليل الحس والمشاهدة .

المبحث الأول

احتجاج القرآن بنصوص التوراة والإنجيل

قاعدة القرآن الكريم في حوار أهل الكتاب الاعتراف بما لهم من كتاب ﴿ ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، وبما ورثوه من وحي إلهي ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾[2].

و تعظيم جملة الأنبياء الذين يؤمن بهم جملة أهل الكتاب على اختلاف فرقهم.

إن من يطالع القرآن يشاهد بجلاء كيف يحيط ذكر النبوة والأنبياء،والوحي السابق بهالة من التبجيل، والإجلال حتى في مواقع الخصومة والجدل العنيف ، فقد « حاول الإسلام أن يلتقي بهم من خلال الإيمان بمقدساتهم من موقع الإيمان بمقدساته ،بحيث لا تمثل القضية أي تنازل من قبله ، بفعل المجاملة والبحث عن قاعدة للقاء كيف كانت، بل هي منسجمة مع واقع العقيدة والإيمان. »[3].

والقرآن بذلك يحمي الحقيقة أن تعصف بها الخصومة. حقيقة أن الله تعالى أنبياء،وكتبا سبقت في الزمن الأول، حتى وإن ادعى التمسكَ بها خصومه بما لا طائل تحته.

فالقرآن يعتمدها قاعدة مشتركة ينطلق منها الحوار الهادف، فخطابه إزاء أجيال أهل الكتاب « لا يشكو من أية عقدة إزاء ما تقدس من أنبياء، أو تؤمن به من عقائد، وما تمارسه من شريعة، فهو يؤمن بالأنبياء السابقين كما يؤمن بمحمد ﷺ ويقدس الكتب المترلة بوحي الله،كما يقدس الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وينطلق من فكرة التوحيد التي تدين بالإله الواحد. »[4].

---

[1] -الآية **154** سورة الأنعام.

[2] الآية **163** سورة النساء.

[3] - الحوار في القرآن . محمد حسين فضل الله .**125/1**.

[4] - الحوار في القرآن **124/1**.

لا شك أن هذا الأسلوب الصارم في معالجة القضايا كان سببا مباشرا في كف كثير من تلبيسات أهل الكتاب ، وخصوصا اليهود منهم ، ويمكن الاستفادة منه اليوم إزاء من يناصبون هذا الدين العداء : « ربما نحتاج إلى الأسلوب الذي اتبعه القرآن في مواجهة اليهود الذين أنكروا الحقائق الموجودة عندهم لئلا تتخذ حجة ضدهم في مواقفهم المنحرفة عن الحق ..وذلك بأسلوب التحدي الذي يطلب منهم أن يظهروا كتبهم وصحفهم التي تصرح بذلك مع الإشارة إلى أسمائها ، وعناوينها ، إمعانا في التحدي أو يحاول ا، يأخذ منهم اعترافا حاسما بالحق الذي ينكرونه ، في المواقف العامة التي لا يستطيعون التراجع عنها ، للحصول على أحد موقفين إما الاستجابة للتحدي التي تفضح واقعهم وتدفعهم إلى القبول بالحوار ، وجها لوجه ، إزاء الفكر . وإما الاعتراف بالحق كموقف حقيقي ، أو تسجيلي ..يؤدي بنا إلى قوة الحق في مواقفه وإضعاف الباطل في حركته في مجال الحياة .. » [1] .

1-توحيـــد الله:

يقدم القرآن الحقيقة التالية:إن الله تعالى قد أخذ من بني إسرائيل ميثاقا غليظا، وعهدا موثقا ألا يعبدوا إلا الله الصمد، وذلك في قوله﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾[2] ،وهي محور نموذج المحاجة تحت هذا العنصر.

يقتصر الدرس في هذه الآية على أربع ظواهر لغوية، وهي: العدول عن الإضمار إلى الإظهار ، و الالتفات من الغيبة إلى الحاضر، ومفردة الميثاق ، والتعبير بالخبر عن الشيء بديلا عن الأمر، وأثر ذلك في المعنى وقوة الحجة .

أما الأول فقد كان سياق الآيات السابقة بإضمار المخاطب مثل﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ﴾، وأما هنا فقد عدل التعبير القرآني عن الإضمار إلى الإظهار، وهذا المسلك القرآني في توجيه الخطاب، وتلوينه مرده عند ابن عاشور إلى أمرين، فقد قال : « وأظهر لفظ ﴿ بني إسرائيل ﴾ وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين :

---

[1] - الحوار في القرآن 1/136-137.

[2] --الآية 83 سورة البقرة .

– ***أحدهما*** أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل،وتوقيفهم على مساويهم،فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى﴿ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾البقرة40

– ***ثانيهما*** أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف، وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن؛ تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح » [1].

وبهذا يصبح السامع معنيا بدقة بمسألة الميثاق وما تضمنه من حماية حق الله في التوحيد و حتى لا يصبح الأمر عنده مجرد حكاية عن ما فعله الأسلاف من الاعتداء على التوحيد فيتخلص هو بذلك من حجة القرآن وكأن الأمر لا يعنيه .

ويمكن أن يقال أن موضوع التوحيد وأخذ العهد به ، وواقع التفريط فيه اقتضى إظهار المخاطب للاهتمام بالأمر أكثر ؛ لما في الإظهار من مزيد ذلك عن الإضمار ، وأما سائر ما ذكر من قبل فهو من التوابع .. لا نفس التوحيد .

وقد عبر ت الآية عما تم آخذه من بني إسرائيل بالـــ ﴿ **ميثاق** ﴾ وهذه العبارة عند الراغب « الميثاق عقد مؤكد بيمين وعهد »[2]. وتضمين الميثاق معنى اليمين هو ما يفسر لنا ما قيل من أن جملة لا تعبدون إلا الله « جواب قسم دل عليه الكلام أي حلفناهم لا تعبدون أو جواب الميثاق نفسه لأن له حكم القسم »[3] .

أما الثاني فمما يبين مزيد الاهتمام الوارد في هذا المقام بأمر التوحيد وجود الالتفات في جملة ﴿لا تعبدون إلا الله ﴾ وهو فن بلاغي له غرضه في النظم ، فلم يقل – ألا يعبدوا إلى الله – يسند الفعل إلى الماضين ، وكأن الحاضرين زمن صاحب الرسالة من أهل الكتاب لا شأن لهم به ، بل عبر بخطاب يشمل الحاضرين ، فهو إذن بلاغيا « التفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله ﴿لا

---

[1] – التحرير والتنوير **582/1**.

[2] –معجم مفردات ألفاظ القرآن . الراغب الأصفهاني .دار الكتب العلمية ، ط: **01. 1997**. ص/**582**.

[3] -الألوسي **307/1** .

تعبدون﴾ ومن خطاب بني إسرائيل القدامى إلى خطاب الحاضرين منهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .»[1].

ومما يفيده التعبير بالفعل المضارع ﴿ **لا تعبدون** ﴾ الدلالة على الاستمرار في هذه المخالفة المنهي عنها حتى زمن النبوة ، بل إن خصوص من كانوا يبادلونه الحجة كانوا متورطين أيضا في هذه المخالفة، وإلا لما قامت عليهم حجة القرآن، ولاندفعوا ينفون عن أنفسهم على الأقل هذه التهمة لإثبات ما هم عليه من جادة التوحيد .

وأما الثالث ففيه التعبير القرآني الرائع بالخبر ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ عن الشيء بديلا عن الأمر به وهذا في البلاغة أمر معروف « خبر في معنى الأمر، ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر؛لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه »[2].

ومعنى كلامه أن حقيقة الخبر أنه تعريف بما مضى ، أما الأمر أو النهي فهو يتعلق بالمستقبل لكن؛ لما كان امتثال أجيال منهم أمرا موثوقا منه جرى التعبير بالخبر لهذه النكتة ، ولو أن فيهم من لم يوف بالميثاق .

وهو نفس ما ذهب إليه الزمخشري من أنه « إخبار في معنى النهي كما تقول تذهبُ إلى فلان تقول له كذا ، تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ؛ لأنه كأنه سُورِع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه »[3] .

ففي نصوص كل من العهدين يجري التصريح بحق الله على عباده ، وهو توحيده عن الشبيه والنضير، والنفي الحاسم لكل شريك عنه من أي نوع كان ونحن نؤمن بأن النصوص القديمة الموجودة في زمن صاحب الرسالة كانت أصح مما هي عليه الآن بدليل إن القرآن وصفها بالهدى والنور ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ

---

[1] – إعراب القرآن وبيانه.محي الدين الدرويش. دار الرشيد –سوريا– ط:02 . 1983. 137/1.

[2] – التحرير والتنوير . ابن عاشور . 582/1.

[3] – الكشاف . أبو القاسم جار الله الزمخشري . دار المعرفة –بيروت–بدون تاريخ . 78/1–79.

يَحْكُمُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [1]، كما رد عند الخصومة إليها ﴿ ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2].

ورغم ذلك فإن النصوص الحديثة مع كثرة التحريف فيها قد حملت ما يصلح للاستدلال به ، فالقرآن مثلا يذكر ذلك ويحيل إلى هذه النصوص ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ﴾[3] ،وفيه قول عيسى ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾[4]، وفي قول فرعون ساعة الهلاك ﴿ لا أله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾[5]، وخاطب موسى ربُه سبحانه قائلا ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوة لذكري﴾[6]

وفي ما يلي نصوص من العهدين حول عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء :

ففي نص من الإنجيل « وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » (يوحنا **03/17**.) ، وهو واضح في تحديد منزلة المسيح العبد الرسول من الله الخالق تعالى وفي نص آخر » أن أول كل الوصايا اسمع يا إسرائيل إلهنا إله واحد » (**مرقص 12/ 29**.)، فإله إسرائيل إذن واحد ، وتوحيده هو رأس كل وصية لبني إسرائيل .

وهذا أصرح من السابق لما فيه من نفي الآخر والشريك بجميع صوره .وفي مرقص ما نصه:« وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب » (**مرقص 32/13**).

ومع ذلك فقد ظل النصارى مخالفين لعقيدة السيد المسيح ، وعقدت مجامعهم مرارا من أجل إلحاقه قسرا برتبة الألوهية ، رغم وضوح براهين بشريته من جهتي كل من النقل والعقل ، والموجودة حتى في الأناجيل التي اعتمدت أخيرا ، وصيغ بعضها لهذا الغرض خصيصا وهو إنجيل يوحنا .

---

[1] – الآية **44** سورة المائدة .

[2] --الآية **43** سورة المائدة .

[3] --الآية **83** سورة البقرة .

[4] --الآية **51** سورة آل عمران .

[5] --الآية **90** سورة يونس .

كما ظل اليهود ومثلهم النصارى على زعمهم في يتناقلون في جنب الله نصوصا سقيمة تصف الإله القديم بأقبح أوصاف البشرية ، والضعف والحمق تعالى الله عما يقولون. ووصل الأمر إلى حد تجسيده على الأرض . بل إن طائفة منهم كما قد حكى القرآن عنهم ادعت ألوهية عزير والمسيح.ولا شك أن هذا كان موجودا في كتبهم أكثر مما هو عليه الآن ؛ وإلا لما احتج عليهم القرآن به .

وتلخيص الكلام في هذه النقطة أن ما أمر به موسى وعيسى، وما بينهما من الأنبياء بني إسرائيل في هذه النقطة هو التوحيد الخالص لله وإفراده بالعبادة .وقد كان ذلك ولا شك في التدوين الأول للتوراة والإنجيل . مع أنهما قد حرفا وبدلا حتى قال كثير من أهل الكتاب أنهما قد ضاعا على العموم زمن السبي.

ورغم ذلك فقد بدا في كثير من النصوص واضحا أمر التوحيد ، مما لا يستقيم مع النصوص الأخرى الدخيلة ، فهذا كله كان موجودا يقرأونه، ويقرونه ثم هم على غير طريقه وفي ذلك حجة باهرة عليهم .

2-عبودية المسيح :

هذا العنصر هو لبيان رد القرآن على خصوص النصارى من أهل الكتاب بسبب من أن النصارى تدعي في عيسى رتبة الألوهية مع الله رب العالمين ؛ لما هو مقرر عندهم من طريقة ولادته وقيامته من بين الأموات بعد حادثة الصلب ، وما كان يفعله من المعجزات كإحياء الموتى.. فاستحق بذلك كله رتبة ابن الآب .

والقرآن الكريم يقرر هنا و على مسامعهم خلاف ما يعتقدونه، إذ عيسى لا يعدو أن يكون عبدا لله سبحانه ، وهذه العبودية والطاعة أمر مقرر في الأناجيل و في القرآن ، ومعلوم عند الفريقين ، لكن القرآن يقف به عند حد العبودية لا يتعداه ،خلاف ما تفعله النصرانية .

و بما أن القرآن قد ساق هذا التقرير على لسان عيسى ﷺ فلا شك أنه قد سمعه منه من كان معاصرا له من الأتباع والخصوم ، وعلم به من كتب شيئا من الأناجيل وبالمطالعة لهذه الكتب نجد قطعا مصداق ما يحتج به القرآن ، فهو إذن يحيلهم على ما بين أيديهم من الوحي .

فالآية محل الشاهد على لسان عيسى عليه السلام ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] تبين هذه المحاجة ، فقد بدأت بمؤكدين وتضمنت إضافة و إشارة وختمت بفاصلة لها تعلق بما قبلها.

أما التأكيد فإن المقام يقتضيه فالقرآن أمام منكرين ، بل أمام من يعتقدون خلاف ما يقرره القرآن من أن عيسى عبد لله،فهم يجعلونه إلها؛ولذلك ورد ابتداء الجملة بالمؤكد بـــ﴿إن﴾ ومجيء الجملة اسمية .

فـــ﴿إن﴾ هنا « واقعة موقع التعليل للأمر بالتقوى والطاعة »[2] السابق من قوله﴿ فاتقوا الله و أطيعون﴾ في نفس الآية.وفائدة التعبير بالجملة الاسمية إفادة الثبات والدوام كما هو معروف فعند الزمخشري « أن الجملة الاسمية آكد من الفعلية »[3].

الإشارة بـــ﴿ هذا ﴾ « إشارة إلى ما قاله كله أي أنه الحق الواضح فشبهه بصراط مستقيم لا يضل سالكه ولا يتحير »[4].

وتضمنت الآية أيضا إضافة لفظ **الرب** المتكلم وهو عيسى عليه السلام وفيه زيادة بيان أن الله رب جميع العباد وأولهم عيسى عليه السلام وقدم الإضافة إلى نفسه قبل الإضافة إلى غيره، تسجيلا لهذه الحقيقة حقيقة ربوبية الله تعالى له عليه السلام.

---

[1] -الآية **51** سورة آل عمران .

[2] – التحرير والتنوير **254/3**.

[3] – النظم القرآني لكشاف الزمخشري .**/58**.

[4] التحرير والتنوير **54/3**.

والتعقيب بفاصلة ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ عقب ما تقرر في الآية السابقة وفيه نفس ما مر من الإتيان به جملة اسمية تفيد دوام الاستقامة . وهو ما يسمى في البلاغة التذييل « الإتيان بجملة مستقلة بعد إتمام الكلام؛لإفادة التوكيد وتقرير لحقيقة الكلام ، وذلك التحقيق قد يكون لمنطوق الكلام وتارة يكون لمفهومه »[1].

وقد جاء الصراط مفردا كما جاء منكرا « وكثيرا ما يصحب الدلالة على نوع خاص من أنواع الجنس المنكر الدلالة على تعظيم هذا النوع أو تهويله »[2].

ولا شك أن ما يذكره القرآن على لسان عيسى عليه السلام لا تتم الحجة القرآنية إلى إذا كان بإمكانهم أن يجدوه فيما بين أيديهم من الكتب:﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه . ﴾[3]، ثم قال أيضا : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأويه النار. ﴾[4] وأخبر أن مهمته في الدنيا:﴿ ورسولا إلى بني إسرائيل . ﴾[5].

والقرآن وهو يخبر بهذا يحيل الفريقين إلى الإنجيل فإنه ناطق حتى المحرف منه بعبودية المسيح في نصوص كثيرة لا تقبل التأويل ، وأحيانا لا يقول بالتأويل فيها عموم النصارى وفيما يلي بعض منها مما يتم به المراد :

ففي إنجيل (**متى**) احتجاج على أن عيسى هو عبده المسيح المنتظر ، بواسطة ذكر نبوءة أشعياء « هو ذا عبدي الذي اعضده، مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه » (**أشعياء: 01/42**) ، وقال على لسان عيسى عليه السلام مقررا لعبوديته : «إني أشكرك يا رب » ،وأخبر عن مصدر أعماله كلها :« أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا كما أسمع أدين ، ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني ». (**يوحنا 30/5**).

---

[1] التحرير والتنوير **54/3**.

[2]- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحي بن حمزة العلوي (دار الكتب العلمية –لبنان– بدون تاريخ)**111/3**.

[3]- النظم القرآني /**102**.

[4]-الآية **51** سورة آل عمران .

[5]-الآية **49** سورة آل عمران .

كما صرح المسيح بحقيقة وصفه « إن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص » (لوقا 56/9). هذا وغيره كثير ناطق بعبوديته لله ، مرة ببيان أصله وأنه إنسان ، ومرة ببيان وظيفته وأنه رسول ، وأخرى ببيان عبوديته وطاعته وشكره لربه ؛ على ما أعطاه وحباه .وأخيرا استغاثته به من شر أعدائه، وكل ذلك في الإنجيل ، فأين عقول الناس ؟ وأين مدلولات هذه النصوص الصريحة ؟ وأين وصايا المسيح ؟.

ومن هنا فهم « إذا نظروا في الإنجيل وفي كتب **بولص**، وغيره ممن يحتج به النصارى وجدوا نحوا من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح وكلها تنطق بعبودية المسيح وأنه مبعوث مربوب، وأن الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة من اختيارهم على هواهم ، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته، فلوا كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التي يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التي قد بات بغير تأويل ؛لأنه يجب أن يقاس الجزء على الكل ، ويستدل على ما غاب بما حضر وعلى ما أشكل بما ظهر.»[1].

"وإذا نظر في الإنجيل وفي كتب بولص وغيره ممن يحتج به النصارى وجدوا نحوا من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح وكلها تنطق بعبودية المسيح وأنه مبعوث مربوب وأن الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة من اختيارهم على هواهم ،فأخذوا بذلك التأويل الفاسد وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته ، فلوا كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التي يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التي قد بات بغير تأويل ؛لأنه يجب أن يقاس الجزء على الكل ، ويستدل على ما غاب بما حضر وعلى ما أشكل بما ظهر."[2] .

---

[1]- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى.عبد المجيد شرفي. الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب –تونس ، الجزائر-1989.)/316-317. '

[2]- الفكر الإسلامي . المرجع نفسه .316-317.

وقد حكى ابن قيم قصيدة[1] عن بعضهم :

أعباد الصليب لنـــا ســـؤال ... نريد جوابـــــه ممن وعاه

إذا مات الإله بصنع قـــــوم ... أمـــــاتوه فما هذا الإلـــــه

وهل أرضاه ما نالوه مـــــنه ... فبشـــــراهم إذا نالوا رضاه

وإن سخط الذي فعلوه فيـــه ... فقوتـــــــهم إذا أوهت قواه

وهل بقي الوجـــــود بلا إله ... سميع يستجيب لمـــــن دعـــــاه

وهل خلـــت الطباق الســـبع ... ثوى تحت التـــراب وقد عـــــلاه

وهل خلـــت العوالـــم من إله ... يدبرهـــا وقـــد سمـــــرت يداه

وكيف تخلـــت الأملاك عنه ... بنصـــــرهم وقد سمـــــعوا بكاه

وكيف أطاقت الخشبات حمل ... الإله الحـــق شـــد على قفـــــاه

وكيف دنا الحديد إليه حـــتى ... يخالطـــه ويلحـــــــــقه أذاه؟

وكيف تمكنت أيدي عـــــداه ... وطالت حيث قد صفعوا قفـــاه

وهل عاد المسيح إلى حـــياة ... أم المـــــــــحي له رب ســـواه

ويا عـــجبا لقبر ضم ربـــــا ... وأعجب منـــــه بطن قد حـــواه

أقام هناك تسعا من شـــــهور ... لدى الظلمات من حيـــض غذاه

وشق الفرج مولودا غيرا ... ضعـــيفا فاتحا للثـــــــدي فـــاه

ويأكل ثم يشرب ثم يأتي ... بلازم ذاك هـــــــل هذا الإلـــه؟

تعالى الله عن إفك النصارى ... سيـــــــــــسأل كل عما افتراه .

---

[1]- هداية الحيارى . ابن قيم .345.

3- بشارة التوراة والإنجيل بمحمد ﷺ:

الآية محل الشاهد: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

محل الشاهد هنا جملة اسمية وقعت نعتا لمؤمني أهل الكتاب الذين يفرحهم مبعثُ الأنبياء ، واتصال الأرض بالسماء ، لا يفرقون بين نبي وآخر، يصرح القرآن عن هؤلاء أن من اتبعوه هو موجود بالفعل فيما عندهم من الوحي ، فهي إذن إحالة على ما بين أيديهم من الكتب ، وقبل الخوض في المضمون يحسن لفت النظر إلى ما في الآية من البحث اللغوي الذين جاء داعما لذلك المضمون ، وحاملا لتلك الحجة .

ورد التصريح بالاسم الظاهر كـ﴿الرسول﴾ ،﴿والنبي﴾ ،﴿الأمي﴾ زيادة في البيان ورفعا لكل التباس يقع أو قد يقع في أمر النبي الخاتم من جهة ما قد يحصل من تبدل أو تبديل المصطلحات بين مصطلح الرسول والنبي ، ثم زيد في البيان وصف أخص من ذلك كله وهو الأمية ، بمفهومه الإيجابي الداعم لتلقي معجزة الوحي من مصدره ؛ ليلا يقع الاشتباه وبالتالي يفتح مبرر الإنكار للرسول الخاتم « ومن نكت القرآن الجمع في هذه الآية بين وصفي النبوة والرسالة ؛ للإشارة إلى أن اليهود بدلوا وصف الرسول، وعبروا عنه بالنبي ليصدق على أنبياء بني إسرائيل ..وحذفوا وصف الأمي »[2].

كما وقع التصريح باسم الكتب من خصوص **التوراة والإنجيل** لنفس الأمر تقريبا أمر البشارة فلا يقع إبهام في محل وجود البشارة ،كما لو قيل في غير القرآن مثلا مكتوبا فيما سبق من الكتب.

---

[1] - الآية **157** سورة الأعراف .

[2] - التحرير والتنوير . ابن عاشور . **9/ 132**.

وبالتدقيق في عبارة ﴿ يجدونه مكتوبا ﴾ يقع التساؤل ما هو المكتوب أهو الاسم أو الوصف ؟ فعند ابن عاشور أن « معنى يجدونه مكتوبا وجدان صفاته ونعوته التي لا يشبهه فيها غيره ، فجعلت خاصته بمنزلة ذاته ، وأطلق عليها ضمير الرسول النبيء الأمي مجازا بالاستخدام وإنما الموجود نعته ووصفه ، والقرينة قوله –مكتوبا- فإن الذات لا تكتب.» [1]، وهكذا لا يخلو النص من الكتابة ، ولا تخلوا الكتابة من وجود الوصف، والنعت الذي يميزه ويبرزه ويجعل التخلص من الإيمان به أمرا صعبا .

ويلاحظ أيضا ظاهرة تكرر التعبير بالفعل المضارع في مواضع أربعة من هذه المحاجة ، وهي ﴿يتبعون﴾ ، ﴿يجدونه﴾، ﴿ يأمرهم﴾ ،﴿وينهاهم﴾ وقد تقدم ما في المضارع من الدلالة على الدوام دوام الاتباع من أهل الكتاب لهذا الرسول ، ودوام وجدانه مكتوبا عند كل جيل فيما بين أيديهم مما يسمونه بالتوراة والإنجيل .

تشيع في القصص القرآني ظاهرة تكذيب الرسل والأنبياء ، كما يشيع في الكتاب المقدس إدعاء النبوة ، ورغم أن جانب النبي يتأكد غالبا بالمعجزة الحسية الباهرة التي يعاينها المدعوون ، إلى جانب ما يشاهدونه من استقامة أمر الداعي ، بما لا يدع مجالا للشك في صدق أخبارهم وصحة نبوتهم ، إلا أن جانبا كبيرا من المدعوين يظل معتصما بالرفض لواجب تصديق النبي فيما يضيفه إلى نفسه من أمر التبليغ عن الله ؛ فلا لرسل الله من أن يلوذوا بالصبر على الإعراض والتحمل لهذا التكذيب المشين .

ولما لم يكن أمر التكذيب بدعا في تاريخ الرسل خاطب الله نبيه الخاتم بنفس ما خاطب به السابقين من واجب الصبر وذلك قوله تعالى ﴿*ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا* ﴾[2].

---

[1] – التحرير والتنور.نفس المصدر . 9 /132.

[2] –الآية 34 سورة الأنعام .

إن مسألة الوحي وما يحمله من تشريع للناس مما يتأكد اهتمام الأنبياء بها أكثر من غيرهم لشدة حاجة البشر لهذا التشريع ، وصعوبة السير بدونه في غمرة الأهواء .. مما يعيق السير الصحيح ، وكذلك للحاجة الماسة إلى حقائق الكون التي تغيب عن الإنسان لكونها في غير عالمه الحسي الذي يحدد إدراكه للأشياء والأحياء .

لهذا السبب ولغيره كان كل نبي يستغل لحظة الرحيل وهو يفارق قومه ليوصيهم بالنبي القادم من أجل الإيمان به ، وربما سماه لهم إن لم يكتف فقط بحسن توصيفه لهم بحيث لا يشتبه بغيره ، مستغلا لحظة الوداع العاطفية حين تتشبث القلوب بمعاني النبوة في شخص النبي المفارق ؛ ذلك لأن كل نبي لاحق إنما كان يتمم ما بناه السابق ، ويصلح الخلل الواقع في استقامة الناس على عهد النبي الأول .

فيكون التواصي بالنبوة من أمر الدين ومما لا يتم الواجب إلا به ففي الإنجيل أن بني إسرائيل كانوا ينتظرون مجيء **إما المسيح أو إلياء أو النبي** ، بمعنى أنها نبوءة توراتية وبالفعل فإن التوراة قد بشرت بالمسيح من نسل داو ود يأتي لخلاص شعب إسرائيل مما هم فيه من الذل المسلط عليهم.

يرى ابن قيم الجوزية أن الأنبياء جميعا قد بشروا بالنبي العربي محمد ﷺ وأوصوا قومهم بالإيمان به ، يشهد لهذا ظاهر قوله تعالى ﴿*وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين*﴾[1]، « فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقا لها ، ثم بشر -أي المسيح- برسول يأتي من بعده ، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقا له ، كما كان ظهوره تصديقا للتوراة.» [2].

هكذا يتأكد حرص الشجرة النبوية المباركة على ظهور الخاتم الذي يتم الله به دينه ، ويكمل الباقي من أمر الهداية للناس ويوضح لهم المعالم ، ويصدق السابقين من إخوانه الأنبياء وكذلك لما كان كل ربما كذبوا بنبيهم، أو بأنبياء غيرهم من الأمم حتى اختلط الأمر ووقع الناس في رتبة النبوة بالتكذيب والشك ، فكان لزاما أن تحفظ الحقائق ويصدق الرسول صلى الله عليه وسلم أمر النبوات السابقة جميعا ، ويقوي جانبها ويفصل في المختلف فيه منها ، ويطهر ساحة الأنبياء

---

[1] -الآية **81** سورة آل عمران .

[2] هداية الحيارى ، ابن قيم الجوزية/**321**.

مما نسب إليهم ، ويصدقهم فيما بشروا به . فكان بهذا نفس ظهوره كما ذكر ابن القيم تصديقا لهم في ما أخبروا به أقوامهم من اسمه وأوصافه.

وبمطالعة كتب العهدين يمكن للباحث أن يجد نبوءات متكاثرة يحملها أهل الإسلام على الرسول الخاتم بينما يصرفها عنه من كفر به من أهل الكتاب منها:

-« أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به أنا أطالبه» (تثنية**18/18-20**).

يعلق ابن قيم[1] على البشارة الأولي أنها صريحة في النبي العربي لأمور منها :

-أن النبي المبشر به من بني إخوة القوم لا منهم .

- أنه مثل موسى أي له شريعة عامة ، فليس هو عيسى ولا يوشع بن نون .

- أن نص التوراة « لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى» ((تثنية**34/10-12**).

إلى غير ذلك من النبوءات الكثيرة تعلم من مطالعة الأجوبة الفاخرة وإظهار الحق وهداية الحيارى ..وغير ذلك كثير من كتب العلماء .ومثل ذلك من النبوءات قد ورد في الإنجيل برواياته الأربع . منها قوله:« إني ذاهب وسيأتيكم **الفارقليط** روح الحق، لا يتكلم من قبل نفسه إنما هو كما يقال له ، وهو يشهد علي وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به.» (يوحنا **16/14**).

وفي إنجيل متى ما نصه « ألم تروا أن الحجر الذي أخره البناءون صار أسا للزاوية من عند الله كان هذا وهو عجيب في أعيننا ومن أجل ذلك أقول لكم : إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تعطي ثماره ،ومن سقط على هذا الحجر ينشدخ وكل من سقط هو عليه هو يمحقه.» (متى **21/43-45**).

فمن مجموع هذه البشارات، وغيرها كثير في العهد الجديد تقع البشارة بألفاظ مختلفة على قادم جديد وأمة أخرى ، تدفع إليها الراية وتقوم بمسؤولية هداية البشرية، وتنجح نجاحا لم تنجحه أمة أخرى . ثم هو يمتلك من أمر النبوة والتأويل مالا يملكه غيره ، وزيادة ذلك وقع التصريح باسمه كمل في البشارة الأولى (**الفارقليط**) ومعناها المحمود .

---

[1] - انظر : هداية الحيارى /**110-111-112**.

ولا شك أن هذا ولو لم يكن موجودا عندنا اليوم ولا تقرأه في الكتابين فإنه كان موجودا عند أهل الكتاب معروفا عندهم ؛ ولذلك أحال القرآن على ما هو في الكتابين ، وهو في مقام المحاجة وهم في مقام التكذيب ، فلولا أنهم وجدوه ما ساغ لهم أن يسكتوا فلا يسارعون إلى الرد والإنكار ؛ فعلم أنه معروف عندهم من قبل تنصيص الآية عليه .

ويرى ابن قيم هذه النبوءات« إنما تنطبق على من يراه الناس ويسمعون كلامه ، فيشهد للمسيح ، ويعلمهم كل شيء ويذكرهم بكل ما قال المسيح ، ويوبخ العالم على الخطيئة ، ويرشد الناس إلى جميع الحق ولا ينطق من عندهم بل يتكلم بما يسمع ويخبرهم بكل ما يأتي و يعرفهم جميع ما لرب العالمين .»[1].

[1] -هداية الحيارى . المصدر السابق . /123-124.

المبحث الثاني

الاحتجاج عليهم بالدليل العقلي

و يتضمن قضايا كثيرة منها :

1-صدق القرآن :

إن لب النزاع بين النبي الجديد،وخصومه من أهل الكتاب،هو صدق الوحي المنزل على نبي الإسلام. هذه القضية التي لا يسلم بها الخصوم ، والتي يجتهد الرسول في إثباتها هي محل المحاجة الآتية ؛فالقرآن يقدم بعض براهين صدقه بكونه يحكم بين بني إسرائيل في شيء غير قليل مما اختلفوا فيه ، وما أكثر وأشد ما وقعوا فيه من الاختلاف في مسائل الوحي والتاريخ كنبوة المسيح عليه السلام وبراءة مريم البتول ، تبرئة المسيح من الصلب الذي تدعيه بنو إسرائيل . وذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

ويتضمن البحث اللغوي فيها كونها جملة اسمية ، والتعبير بالمضارع ﴿يقص﴾وهو فعل مضارع يفيد الاستمرار في القص. التعبير بالمضارع ﴿ يختلفون فيه ﴾ وهو تعبير دقيق في دوام اختلافهم من قديم الزمان ولا يزالون كذلك في قضايا الدين رغم ما يظهر بينهم من وفاق سياسي تقتضيه طبيعة المرحلة ؛ لذلك كان« التعبير هنا بالمضارع للدلالة على تجدد ذلك منهم »[2]. ثم إن *التصريح بـ ﴿ بني إسرائيل ﴾ دون التقييد بزمن معين، ليفيد عموم بني إسرائيل في كل زمان ومكان.*

إن وحي الله تعالى لأنبيائه أمر معروف، وظاهرة مألوفة عند بني إسرائيل فمثلما أوحى الله تعالى إلى موسى كليمه أوحى إلى غيره من أنبيائه ﴿*الله أعلم حيث يجعل رسالاته*﴾[3] وقال أيضا ﴿*الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس*﴾[4].

---

[1] - الآية 76 سورة النمل

[2] - التحرير 27/20.

[3] - الآية 124 سورة الأ نعام

[4] -الآية 75 سورة الحج.

وقد ورث بنو إسرائيل شيئا من الوحي سمى القرآن أصله الأول التوراة والكتاب : ﴿ثم ءاتينا موسى الكتاب﴾[1]، كما أوحى الله إلى داو ود بالزبور : ﴿وءاتينا داوود زبورا﴾[2]، وإلى ختم النبوة في بني إسرائيل ﴿وءاتينه الإنجيل فيه هدى ونور﴾[3].

غير إن الوحي سرعان ما تبدل وانضاف إليه كلام البشر ، سواء الأحبار أو غيرهم من المؤرخين مما حمله الشعب اليهودي من أساطير قديمة لجمل أيامهم .

وقد شاء الله تعالى أن يترل الكتاب الأخير على أمة العرب دون سواهم ، وباللغة العربية دون غيرها من سائر اللغات ، فالله يفعل في ملكه ما يشاء فهو ﴿فعال لما يريد﴾[4]. وقد كان المفروض في بني إسرائيل أن يتقبلوا هذه المشيئة الإلهية ، ولا يحجروا أمر الوحي فيهم . لكنهم اعترضوا على الله في مشيئته وكلامه ، وناصبوا وحيه الأخير العداوة فكان من مجموع الأمرين هذا الحوار القرآني الجاد مع بني إسرائيل المعاصرين له ومن جاء بعدهم يدلي القرآن فيه بالحجة أثر الحجة على أحقية النبوة الجديدة وصدق الوحي المحمدي .

فمرة يقدم القرآن نفسه بالبلاغة الراقية ، وأخرى بتشريعاته التي بعض منها مما يعرفه بنو إسرائيل ، وتارة بما يقصه على بني إسرائيل من القصص التي غابت فلا تعرفها إلا الخاصة منهم ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾[5] .

ونراه يؤكد على ذكر الوحي السابق والإيمان بالرسل السابقين ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .﴾[6]، فيه خلاصة ما ينبغي أن تحافظ الأجيال المتلاحقة حمله والعمل به مما ورثوه من وحي.ويستشهد بطائفة من أهل الكتاب ممن خلت قلوبهم من التعصب والحسد يؤمنون ويفرحون به ويعلمون أنه الحق من ربهم .

---

[1] -الآية 154 سورة الأنعام .

[2] -الآية 163 سورة النساء .

[3] -الآية 46 سورة المائدة .

[4] -الآية 16 سورة البروج .

[5] - الآية 76 سورة النمل .

2- الآية 48 سورة المائدة .

في قوله تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾[1] وقال أيضا : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

وقد صدق القرآن الكتب السابقة في وجودها ، وكثير مما حملته من أسماء الأنبياء والوقائع والأحكام التشريعية من حيث أنها صحيحة النسبة إلى مصدرها. كما أنه مهيمن عليها ينسخ بعض أحكامها ، ويصحح بعض ما وقع فيها من الخطأ، ويكشف ما وقع فيه أهلها من التحريف بالتبديل أو بسوء التأويل ، وذلك قول الله تعالى في سورة النساء ﴿ ومصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾.

كما أخبر الذكر الحكيم عن واقع التدين عندهم ، فعند الرؤساء منهم، نقرأ هذا الكشف الخطير لجرائمهم ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾[3]. كما أن نقرأ ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[4]، وأن عامتهم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5]. علما أنه عليه السلام ما قرأ ولا كتب ولا اشتغل بمدارسة مع العلماء ولا مجالسة مع الفضلاء ، بل تربى مع قوم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعرفون الكتاب كانوا عارين عن العلوم العقلية أيضا ، ولم يغب عن قومه غيبة يمكن له التعلم فيها من غيرهم.

وقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت يقرر حقيقة أميته ، وما تبعها من معجزات ، ورسوخ حقائق ، سعى المبطلون لإعدامها ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ العنكبوت **48** .

---

[1] الآية **6** سورة سبأ .

[2] - الآية **52** سورة القصص .

[3] - الآية **34** سورة التوبة .

[4] - الآية **46** سورة النساء .

[5] - الآية **31** سورة التوبة .

-بشرية عيسى ونفي ألوهيته:

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ﴾[1]. بدأت هذه الآية الكريمة ومقدمة هذه الحجة الدامغة بهذا القسم ﴿لقد﴾ جريا على عادة الكلام العربي في تأكيد المتكلم كلامه بمؤكدات الجملة العربية لعظمة المقول والحكم المترتب عليه وهو الكفر ؛ لأن السامع «إن كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار فتقول إني صادق لمن ينكر صدقك ، ولا يبالغ في إنكاره ، وإني لصادق لمن يبالغ في إنكاره »[2].

وجاء التعبير بـــ﴿قل﴾ في صدر الآية الكريمة « تبكيتا وإظهارا لبطلان قولهم »[3].كما وقع لتعبير بفعل الماضي ﴿*قالوا*﴾ للدلالة على تحقق وقوع القول المرذول، وهو بمثابة الإدانة لما صدر منهم.

وأتى بـــ ﴿من﴾ « من اسم استفهام إنكاري »[4]، لتضمنه معنى التقريع والتوبيخ ونسبتهم إلى الجهل بالله تعالى وبكمال قدرته .

وقوله تعالى ﴿والله على كي شيء قدير﴾ «كلام مستأنف مسوق لبيان قدرته تعالى على كل شيء فكل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته . »[5]، وهو أيضا « تذليل مقرر لمضمون ما قبله وإظهار الاسم الجليل لما مر من التعليل واستقلال الجملة »[6] .

---

[1] - الآية 17 سورة المائدة .

[2] -الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني . دار الكتاب اللبناني -لبنان -ط: 6. 1985. 1/92-93.

[3] -إعراب 437/6.

[4] -إعراب 437/6.

[5] -إعراب القران 437/6.

[6] - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . شهاب الدين الألوسي.دار إحياء التراث 100/6.

و يلاحظ وقوع التعبير بالماضي ﴿قالوا﴾ للدلالة على تحقق وقوع القول المزدول وهو بمثابة الإدانة لما صدر منهم. **وجملة** ﴿إن الله هو المسيح بن مريم﴾ مقول القول وهو جملة اسمية مؤكد بـــ﴿إن﴾ وهي آكد في الثبات كما مر مرارا وهي أدل على ذلك من الجملة الفعلية .

وأما ﴿جميعا﴾ فهو توكيد للاسم الموصول (من) مع ما يفيده من العموم الداخل تحت سلطان القدرة ، ومنه نلحظ ما للتوكيد من حضور في هذه الجملة ؛ لأن مضمونها تعلق به لب الخلاف بين أتباع الديانتين الإسلامية والنصرانية .

-وفي إظهار لفظ ﴿**المسيح**﴾ بالاسم « على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية حيث ذكرت معه الصفة في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره تعالى »[1].

وتخصيص الأم ﴿ **وأمه** ﴾ بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف « لزيادة تأكيد عجز المسيح ولعل نظمها في سلك من فرض إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام. »[2].

يقف القرآن الكريم في أمر نبي الله عيسى عليه الصلاة و السلام موقفا حاسما ووسطا ، بين موقفين متناقضين ، هما موقف المفرطين من اليهود الذين لا يعترفون به نبيا مرسلا بل ولا حتى رجلا صالحا تؤهله ميزاته الذاتية لرتبة الفضل بين الناس ، وبين المفرطين الذين يجعلونه بسبب هذه الميزات وغيرها إلها جديدا في سلسلة قائمة الآلهة التي افتتحها أجدادهم بالعجل الذي له خوار .

فيقرر القرآن الكريم ويحكم بين المختلفين في شأن عيسى عليه السلام ، وقد كانوا في أمس الحاجة إلى طرف ثالث يرجح اعتقاد أحد الطرفين . فيشطب الكلام الإلهي على الاعتقادين معا لفسادهما ، فيؤكد نبوة عيسى ردا على اليهود والمنكرين لها رغم وضوح دلائلها بينهم ، كما يؤكد بشريته ردا على النصارى المغالين فيه رغم دلائل هذه البشرية

---

[1] – روح المعاني . المرجع السابق. 99/6.

[2] – روح المعاني . المرجع نفسه . 99/6.

ففي سورة المائدة : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا .﴾ [1] وقال في موضع آخر : ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل .﴾ [2] وهاتان الآيتان فيهما رد على مكن قال بألوهية المسيح وأمه من النصارى ،كما فيها إثبات لرسالته.

ففي الآية الأولى تنبيه على دليل القدرة الناقص في عيسى وأمه الكامل في الله سبحانه . إذ عيسى عليه السلام إما أن تكون له قدرة كقدرة الله وهم لا يقولون بذلك لاعتقادهم أن اليهود آذته وصلبته حتى استغاث بربه منهم ، وأنهم تمكنوا منه ومن رأسه يضعون عليه الشوك ، ثم هو عندهم قد مات فما هو بإله لنقصان القدرة فيه و إما إن تكون قدرته دون قدرة الإله ؛ إذ الإله قدرته مطلقة ، ولن يملك لنفسه هو ولا أمه فكاكا لو أراد الله بهما هلاكا ،« فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله وطبيعته ومشيئته وسلطانه ، وبين ذات عيسى عليه السلام وذات أمه ، وكل ذات أخرى في نصاعة قاطعة حاسمة . فذات الله سبحانه واحدة ومشيئته طليقة ، وسلطانه متفرد ، ولا يملك أحد شيئا في رد مشيئته ، أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا . »[3].

وترد الآية الثانية على من أله عيسى ببرهان الحدوث : وهو أن عيسى وأمه كانت تجري عليهم الأعراض من الجوع والأكل وما يلازم ذلك من الألم والمرض . فهو من هذه الناحية محدث ، لا يفترق عن جملة البشر من هذه الجهة ، وهم يقرون بذلك ثم هو موجود في كتبهم ونحن ننقل منه ما يكفي للاستدلال عليه بعد قليل.

وهذا نظير قول الله تعالى في موضع آخر: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [4] «أي كما أن

---

[1] – الآية 17 سورة المائدة .

[2] – الآية 75 سورة المائدة .

[3] – في ظلال القران ، سيد قطب .866/2.

[4] – الآية 75 سورة المائدة .

الرسل الذين مضوا قبله ليسوا بآلهة وإن أتوا بالمعجزات الباهرات فكذلك المسيح فيمن ادعى له الألوهية فهو كمن ادعى لهم الإلهية لتساويهم في المنزلة.»[1].

وقال أيضا : « أنه احتجاج على النصارى بأن من ولده النساء، ويأكل الطعام لا يكون إلها للعباد ؛لأن سبيله سبيلهم في الحاجة إلى الصانع المدبر ، والمعنى أنهما كانا يعيشان بالغذاء كما يعيش سائر الخلق فكيف يكون إلها من لا يقيمه إلا أكل الطعام. »[2].

وقال الإمام الرازي في تفسير الآية التي نحن بصددها : «واعلم أن المقصود من ذلك الاستدلال على فساد قول النصارى وبيان من وجوه : أن كل من كان له أم فقد حدث بعد أم لم يكن ، وكل من كان كذلك كان مخلوقا لا إلها ، والثاني أنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة.»[3].

وقد استفاد الفكر الإسلامي وهو يرد على النصارى عبر التاريخ من هذا المسلك في الاحتجاج على القوم بملاحظة طبيعة عيسى وعدم افتراقه عن غيره من المخلوقات وأن المسألة تدل على قدرة الله أكثر من دلالتها على قدرة عيسى فضلا عن ألوهيته.

ويدفع أخيرا المغالاة فيه بزعم أن ولادته بغض النظر عن ظروفها ، فولادته من غير أب خارقة لها بالألوهية سبب متين لذلك استحق عندهم أن يكون ابنا للإله (**الآب**) لما كان تفرد بذلك عن سائر البشر فهو فوقهم لا محالة فيرد القرآن هذا الميزان التائه إلى العقل الصحيح . وهو أنه يوجد بهذا الاعتبار من هو أحق من عيسى بالألوهية وهو آدم وكذلك حواء ، فالجميع معترفون من أنهما من غير أب ولا أم «وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ، ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية . » (التكوين **2:07**).

وكذلك حواء فهي من ضلع آدم كما في بعض الروايات. وبهذا الميزان يكون آدم أولى من عيسى بالألوهية . ومع ذلك يقرر القرآن : أن كلا من آدم وعيسى عبد من عباد الله وذلك

---

[1] -مجمع البيان ، للطبرسي.**166/2**.

[2] -المصدر نفسه.**166/2** .

[3] -مفاتح الغيب ، فخر الدين الرازي (دار إحياء التراث العربي –بيروت–بدون تاريخ–)**12/ 61**.

قوله في سورة آل عمران : ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك﴾[1]. كذلك عيسى قال له كن في بطن أمه فكان.

كما نجد في التحرير والتنوير لابن عاشور ما نصه:« وهذا شروع في إبطال عقيدة النصارى من تأليه عيسى ورد مطاعنهم في الإسلام ، وهو أقطع دليل بطريق الإلزام ؛لأنهم قالوا بإلهية عيسى من أجل أنه خلق بكلمة من الله وليس له أب . فقالوا هو ابن الله ، فأراهم الله أن آدم أولى أن يدعى له ذلك ، فإذا لم يكن آدم إلها مع أنه خلق بدون أبوين ، فعيسى أولى بالمخلوقية من آدم »[2].

ويرد القرآن على اليهود المكذبين برسالته : ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته﴾[3]، وفي الإنجيل أدلة رسالته وهو عند الفريقين محتج به بعنوان كبير «الكتاب المقدس « ويجمع بين الفريقين في خطاب واحد : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقيها إلى مريم وروح منه﴾[4] وينهاهم أن يقولوا ثلاثة ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾[5] . ويقول في مكان آخر تقريرا لعبودية المسيح ورسالته : ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾[6] وفي نصوص الإنجيل ذكر لعبوديته ورسالته ،سبق نقل ما يحتاج إليه المقام .

والقرآن يقف عند حدود ما هو واضح في الدعوى والدليل « وبهذا ندرك أن القرآن الكريم لم يدخل مع هؤلاء في جدل فلسفي حول قضية التثليث والوحدة وما يلزم ذلك أو يستتبعه من الفروض المستحيلة بل اكتفى بالتأكيد على الوحدة التي يقرها هؤلاء وتقتضيها الأدلة ثم أطلق عن القول بالتثليث ،وأكد كفر القائلين به لأنه يتنافى مع التوحيد الذي ترفض تعدد مظاهر الطبيعة الواحدة ،كما يفرض تعدد الطبائع فإن التوحيد الإلهي لا يلتقي بأي معنى من هذه المعاني

---

[1] -الآية 59 سورة آل عمران.

[2] -التحرير والتنوير،ابن عاشور .263/3.

[3] - الآية 171 سورة آل عمران .

[4] --الآية 171 سورة آل عمران .

[5] --الآية 171 سورة آل عمران .

[6] --الآية 59 سورة الزخرف .

وترك للفطرة أن تقارن –بعد ذلك–وتحكم دون أن يحدد لها تفاصيل المقارنة والحكم..
انطلاقا من المنهج القرآني الذي يحاول أن يشق الطريق للفكر ، ويدله على المنهج ..ثم يدع له أمر سلوكه أو الإطلاع على ما فيه والاستفادة من كل ذلك في كل ما يريد. »[1].

3- دعوى محبة وولاية الله لهم :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2]

التصريح بـــ ﴿اليهود والنصارى﴾ لإفادة العموم في نسبة هذه القالة لأتباع الديانتين وهو من دقة القرآن فلم يقع استثناء لأحد من الإتباع .والتعبير بـــ ﴿يعذبكم﴾ الفعل المضارع للدلالة على استمرار وقوع العذاب وهو واقع من جهة المعنى عبر التاريخ على ما سيأتي في دراسة المعنى الذي تضمنته هذه الآية .

– جملة ﴿أنتم بشر ممن خلق﴾ لتأكيد الدوام على هذه الحقيقة لا يتعدونها ، وهذا من وظائف الجملة الاسمية كما مر في غير هذا الموضع .

– جملة ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ هو «كلام مستأنف للرد على هذه الأقوال »[3].

ورد في القرآن أن اليهود والنصارى يقولون : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾[4] ولا شك أن هذه الدعوى قديمة قدم الديانتين عند ما خلت الأرض من غير اتباعهما ممن يرتبط بسبب إلى السماء من نبوة أو كتاب مع تفشي الوثنية فيما حولهم .

وورد كذلك انهم كانوا يسمون غيرهم بالأميين أي الذين لا كتاب لهم ، ويزعمون فخرا على غيرهم انهم أهل كتاب ، وأنهم شعب الله المختار . ولا شك انهم كانوا إذا لقوا المؤمنين ادعوا فوق ذلك من أنهم أولياء الله وأحباؤه .

قال الإمام الفخر الرازي* في تفسير هذه الآية ما نصه: « وجملة الكلام أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلا على سائر الخلق بسبب أسلافهم الأفاضل من الأنبياء حتى

---

[1]– الحوار في القرآن الكريم ، محمد حسين فضل الله .**162/1**

[2]– الآية **18** سورة المائدة .

[3]– إعراب القرآن **5–438**.

[4]–الآية **18** سورة المائدة .

انتهوا في تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾»[1] وقال أيضا إنهم لو كانوا أبناء الله وأحباءه لما عذبهم لكنه عذبهم ؛فهم ليسوا أبناء الله ولا أحباءه .

ودعوى محبة الله وولايته دعوى عريضة يكذبها التاريخ وواقع علاقتهم مع الله ورسله وكتبه لكنها المزايدة على الناس بما لهم من دين ، وأما الأعمال فلا أحد يقيم لها وزنا وإلا فهم أبعد ما يكونون عن الله .

ولما كانت هذه الدعوى العريضة في متناول الجميع وكان رفعها أمرا ميسرا لهم ولغيرهم فقد أعادوا ذكرها بمسمع من الرسول الجديد وعلى مقربة من المؤمنين .وظلوا يكررونها والأسماع تمج أن يتردى أولياء الله وأحباؤه إلى هذه الدرجة من خبث النية وفساد الطوية، وانحراف السلوك.

فلم يكن بد من أن يدفع القرآن في صدورهم بتكذيب الإدعاء بطريق برهاني واضح وعلى مسمع ومرأى من الجميع ، وذلك نص قول الله تعالى في سورة المائدة وهي مدنية ، تقريرا لمقولة ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾. وتفسيرها «أي فلأي شيء يعذبكم بذنوبكم إن كان الأمر على ما زعمتم فإن الأب يشفق على ولده والحبيب على حبيبه فلا يعذبه ، وهم يقرون بأنهم يعذبون لأنهم لو لم يقولوا به كذبوا بكتابهم وقد أقرت اليهود بأنهم يعذبون أربعين يوما عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل »[2].

وبمعنى آخر «كانوا يقولون تبعا لهذا إن الله لن يعذبهم بذنوبهم وأنهم لن يدخلوا النار- إن دخلوا -إلا أياما معدودات ، ومعنى هذا أن عدل الله لا يجري مجراه ، وأنه سبحانه يحابي فريقا من عباده فيدعهم ، يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين ، فأي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور»[3] ،وخلاصة الآية أنهم وغيرهم سواء في قانون الجزاء الإلهي ثوابا وعقوبة وسيان كذلك خضوعا لمبدأ المغفرة الربانية للذنوب .

- محمد بن عمر بن الحسين الرازي الإمام المفسر المتكلم ولد 544هـ/1150م له في التفسير مفاتيح الغيب جمع فيه بين المباحث الكلامية والفلسفية والدينية وغير ذلك .وتوفي 606هـ/1212م .معجم المفسرين 596/2.

[1] -التفسير الكبير، فخر الدين الرازي . 192/11.

[2] - مجمع البيان 60/2.

[3] -في ظلال القرآن ،سيد قطب (دار الشروق لبنان ط9-1980)2/866-867.

ولا يظهر أن المقصود هو العذاب الأخروي فقط ، فإن هذا لا يحصل به وحده دليل للسامع غير المؤمن ،بل زيادة عليه يصيبهم العذاب الدنيوي .فالتاريخ شاهد على ما مس الفريقين من بلاء وعذاب سلطه الله عليهم لما انحرفوا عن أمره ووحيه ، وخالفوا كلام أنبيائه ، وبما اقترفت أيديهم من الجرائم .

فهذا التاريخ يحكي ما سامهم به فرعون من العذاب ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[1] وما لقيه اليهود تحت الحكم الروماني من البلايا والقهر . وهكذا جرت سنة الله أن يسلط الله على الظالم ظالما آخر ينكل به .

ففي حدود **285** قبل الميلاد بدأ اليهود أول تمردهم على اليونان فقام بطليموس الأول بحملة ضد أورشليم ، وساق من سكانها مائة ألف من الأسرى إلى مصر .كما اليهود كانوا تحت الحكمين اليوناني والروماني يدفعون الجزية .

وفي زمن الحكم الروماني كذلك قام **تيطس** بعد أن ضاق ذرعا بثورات أورشليم المتكررة بدك أورشليم وتدميرها تدميرا كاملا وسواها بالتراب كما تقول الرواية وذلك ستة **70** للميلاد ، وفر أحياء اليهود بعدها إلى ما جاورهم من البلاد[2].

---

[1] -الآية **49** سورة البقرة .

[2] -مدخل إلى التوراة والعهد القديم **.122**

4-إنكار الوحي بالقرآن لمحمد ص:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1].

والآية الكريمة « كلام مستأنف مسوق للرد على اليهود الذين قالوا ما يأتي مما ينسجم مع طبعهم الأصيل في التعنت والملاحاة »[2].

أما التصريح بـــ ﴿ **موسى** ﴾ لما فيه من الاحتجاج بما هو متفق عليه بين اليهود والنصارى وتعظيمه وإظهاره لزيادة البيان ودفع الإبهام إقامة للحجة القرآنية على الفريقين.

ثم التعبير بـــ ﴿تجعلونه﴾، ﴿تبدونها﴾، ﴿وتخفون﴾ وهي أفعال مضارعة يفيد استدامة الأمر الذي يذكر القرآن الكريم أنهم يأتونه ولا يزالون كذلك وقد مر إفادة المضارع ذلك .

وأدرج تحت عبارة ﴿*قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس*﴾ كما أفاده الزمخشري« توبيخهم وأن نعى عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل جاء به موسى وهو نور وهدى للناس حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء .»[3].

يتجسد الموقف الأول لليهود أمام النبي العربي الجديد بالمبالغة المكشوفة التي لا تقيم للواقع وزنا ، إذ أن استكثار النبوة في محمد والعرب بعد أن نزعت من بني إسرائيل ، وتحويلها من أورشليم إلى مكة المكرمة دفع بطائفة من اليهود إلى إنكار الوحي جملة وعلى حد تعبير القرآن ﴿*وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى*﴾[4].

وقد جاء في سبب نزولها « جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :أنشدك بالذي أنزل التوراة على

---

[1] -الآية **91** سورة الأنعام.

[2] - إعراب القرآن **145/7**.

[3] - الكشاف **26/2-27**.

[4] -الآية **91** سورة الأنعام.

موسى أما تجد في التوراة أن الله سبحانه يبغض الحبر السمين ، وكان سمينا فغضب ، وقال ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه ويحك ولا موسى ؟فنزلت الآية: ﴿وما قدروا الله حق قدره .﴾ »[1].

وقيل « إن اليهود قالت يا محمد أنزل الله عليك كتابا ؟ قال : نعم قالوا ولله ما أنزل الله من السماء كتابا فنزلت الآية عن ابن عباس وفي رواية أخرى عنه أنها نزلت في الكفار»[2].

وقال الزمخشري* عند تفسيرها في الكشاف : « والقائلون هم اليهود بدليل قراءة من قرأ تجعلونه بالتاء وكذلك تبدونها وتخفون .وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فألزموا ما لابد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم ، وأن نعى عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض .»[3].

وعلى حد زعمهم لم يوح الله لأحد شيئا ، وأن من ادعى الوحي فقد ادعى خلاف الواقع ،فما اتصل الله إذن ببشر ولا و لا تلقى أحد من السماء شيئا .وإذا كان هذا الموقف المفضوح معلنا في وجه القرآن ، فان أمر الوحي كان واضحا يتأكد كل مكابر منه ، وبصدقه وقد قدم لهم الوحي جملة كبيرة من الأدلة أكدت في ضمائرهم وجود الوحي الخاتم ومع ذلك وخوفا من تشغيب الأحبار على العامة وعلى المؤمنين مع ما للأحبار في المخيال الشعبي من علم ومعرفة ، فقد قدم القرآن برهانا أقرب إلى العقول والى النفوس والى واقع الأشياء.

---

[1] – أسباب النزول ، علي بن أحمد الواحدي(468هـ)،(دار الكتب العلمية–لبنان. ب–ت)/147.

[2] –أسباب النزول ، الواحدي./ 147.

- – محمود جار الله الزمخشري إمام في اللغة والبيان والتفسير ولد في زمخشر من قرى خوارزم 467هـ/ 1075م من أئمة المعتزلة ، له تفسير "الكشاف عن حقائق التنزيل " مشهور توفي بالجرجانية من قرى خوارزم 538هـ/1144هـ . راجع معجم المفسرين 266/2.

[3] –الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . جار الله الزمخشري (دار المعرفة لبنان (بدون تاريخ)ج26/2 .

وصورة الدليل هكذا : « فإذا كان ما تقولونه ثابتا ..فكيف تفسرون نزول التوراة على موسى ، أليس هو بشرا كمحمد ص ..فمن الذي أنزلها عليه ؟ أليس هو الله ..ولابد أن يكون الجواب إيجابا ..لأنهم يتاجرون بها باسم الله ، فيبدون ما ينفعهم في تجارتهم ، ويخفون ما يكشف زيفهم في خداعهم .. »[1] .

فإنكم أيها اليهود تحجرون على إرادة الله أن يوحي ما يشاء إلى من يشاء ، فلا حجر إذن على قدرة الله ومراده . إما أن موسى لم يوح إليه شيء فما هذا الذي تتمسكون به من كتاب وتفاخرون به من إيمان ؟ وما رأيكم في موسى إن لم يوح إليه شيء وادعى انه يوحى إليه بما لا يعترفون به من لقاء الأرض بالسماء .

فأحد الأمرين لازم لهم لا انفكاك عنه :

إما إن محمدا يوحى إليه كما أوحي إلى موسى ، أو أن موسى عليه السلام لم يوح إليه شيء ، فعاد الأمر من جديد إلى من يقدم الحجة ويظهر المعجزة ، وذلك زمان صاحب الرسالة الخاتمة ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ .

5-أمر الناس بالبر والمخالفة إلى غيره :

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2] .

وقعت هذه الآية في سياق نهي القرآن الكريم لبني إسرائيل عن جملة مخالفات وقعت منهم أو يحذرهم من أن تقع منهم بداية من قوله ﴿ولا تكونوا أول كافر به .﴾، بعد أن أمرهم بالوفاء بعهد الله الذي عاهدوا ، فهي جملة معطوفة في قوة قولك (ولا تأمروا الناس بالبر ..) ، ولكنه عدل عن العطف إلى إظهار همزة الاستفهام لكون ذلك « زيادة في المبالغة وتسجيلا للتبكيت والتوبيخ »[3] ..

---

[1] – الحوار في القرآن . حسين فضل الله . 145/1.

[2] –الآية 44 سورة البقرة .

[3] –إعراب القرآن . 95/1.

فالاستفهام هنا له معان ثلاثة :

- معنى التقرير للأمر المذكور من شأنهم ؛ ولذلك قال الألوسي أن « الهمزة فيه للتقرير »[1]؛ لما أن الله تعالى عليم بحالهم لا يُخفى عليه ما يسرون السعي إليه فامتنع أن يكون استفهاما حقيقيا .

- و معنى التوبيخ وتعليل ذلك«أن من يأتي ما يستحق التوبيخ عليه من شأنه أن يتساءل الناس عن ثبوت الفعل له ويتوجهون إليه بالسؤال فينتقل من السؤال إلى التوبيخ »[2].

- ومعنى التعجيب ممن هذا شأنه يتعاطى يوميا حث الناس على البر وتعداد وجوهه السنين الطويلة والفترات المتعاقبة وينسى أن يلزم نفسه شيئا مما يأمرهم به فهو يحرمها من ذلك وهم يرقبونه والعجب يأخذهم كل مأخذ ، زيادة على يقع منه من الإصرار على هذا الحال الشنيع فإن « الحالة التي وبخوا عليها حالة عجيبة لما فيها من إرادة الخير للغير وإهمال النفس منه ، فحقيق بكل سامع أن يعجب منها . »[3].

وبالبحث في المفردات الواردة في الآية نجد كلمة (وَتَنسَوْنَ) والتي من معانيها الذهول عن الشيء ، ولا شك أن ما كانوا عليه من المخالفة إلى ما نهوا عنه لم يكن دائما بدافع الذهول عن النهي ، فتعين أن يكون معنى (وَتَنسَوْنَ) أمرا زائدا على مجرد الذهول ففي التعبير مجاز كما قال الزمخشري ، وقرره ابن عاشور عنه ووافقه عليه فقال « وجعله صاحب الأساس مجازا وهو التحقيق وهو كثير في القرآن ، والنسيان هنا مستعار للترك عن عمد أو عن التهاون بما يذكر المرء في البر على نحو ما »[4] .

ولا يخفى أن التعبير عن ذلك بالنسيان يدل على أن الترك قد طال أمده ، وتكرر عندهم ذلك الترك فأراد لازم النسيان بحيث لم يعد يثير شعورا بالندم أو الانتباه إلى خطورة الأمر « لأنهم لما طال عليهم الأمد في التهاون بالتخلق بأمور الدين والاجتراء على تأويل الوحي بما يمليه عليهم الهوى بغير هدى صاروا ينسون أنهم متلبسون بمثل ما ينهون عنه »[5].

---

[1] -روح المعاني . الألوسي . ج248/1.

[2] - التحرير والتنوير 474/1.

[3] - التحرير والتنوير 475/1.

[4] - التحرير والتنوير 475/1.

[5] - التحرير والتنوير . ابن عاشور1 /475.

فالنسيان إذن الترك بل تعمد الترك وتكراره ؛ فإن « أحدا لا ينسى نفسه بل يحرمها ويتركها كما يترك الشيء المنسي مبالغة في عدم المبالاة والغفلة فيما ينبغي أن يفعله »[1] . ولم يعين قضية خاصة مما هو من أعمال البر عندهم أمروا بها غيرهم ولا عدة قضايا معينة بل جاء بمفردة ﴿البر﴾ بصيغة العموم ليشمل التعبير بها كل خير »[2].

وبالبحث في الجمل التامة نجد أن جملة ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ وهي «حال من فاعل (أتأمرون)»[3] وفائدة الإتيان بها بعد الاستنكار بيان غرابة وفظاعة هذا الموقف لأن النسيان بالمعنى الذي ذكرناه وتكراره منهم عن عمد هو في حال تستدعي التذكر وهو أمرهم الناس بالبر يوميا وتلاوة الكتاب الذي أقل فوائده التنبه إلى جملة الأوامر والنواهي الواردة فيه ؛ وفي ذلك يقول ابن عاشور « لأن نسيان أنفسهم يكون أغرب وأفظع إذا كان معهم أمران يقلعانه ، وهما أمر الناس بالبر ، فإن شأن الأمر بالبر أن يذكر الآمر حاجته إليه إذا قدر أنه في غفلته عن نفسه ، وتلاوة الكتاب أي التوراة يمرون فيها على الأوامر والنواهي من شأنه أن تذكرهم مخالفة حالهم لما يتلونه »[4].

كما أن جملة ﴿أفلا تعقلون﴾ التي ختمت بها الآية تقع فاصلة قرآنية تضمنت استفهاما فما معنى هذا الاستفهام الذي صدرت به هذه الجملة ؟ وما وظيفة هذه الفاصلة التي ختمت بها الآية وما علاقة المعنى الذي تضمنته بالمعنى السابق في بقية الآية..؟

أما الاستفهام فهو مستعمل في الإنكار على من هذا حاله منهم ووجه هذا الإنكار « أن المقصود من الأمر بالبر الإحسان والامتثال والزجر عن المعصية ، ونسيانهم أنفسهم ينافي كل هذه الأغراض »[5].

---

[1] – روح المعاني . الألوسي . 248/1.

[2] – المصدر نفسه . 248/ 1.

[3] –المصدر نفسه .248/1.

[4] – التحرير والتنوير . ابن عاشور .475/1 .

[5] – روح المعاني . الألوسي . 248/1.

والإنكار عليهم يناسب ما يواقعونه من النهي بل يظهرون مواقعته ، ولا شك أن العامة من الناس كانت على علم بهذه المخالفة من الأحبار يفيدهم ذلك مرور الزمان وتطاول النسيان لوجوه البر وتثاقل نفوس الرؤساء عنه من كثرة الهجر ، لا من شدة الهاجرة .

وفائدة الفاصلة التعقيب على معنى الجملة بالتأكيد والمبالغة وإفادة وصف عدم التعقل فيما يقدمون عليه من دلالة الناس على وجوه البر وحرمان أنفسهم منها كأنها ليست من وجوه البر بل من المآثم التي يحرصون على إظهار مجافاة لها أمام الناس ،ويوجد عند الزمخشري ، في الفاصلة المذكورة « توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول لأن العقول تأباه وتدفعه . »[1].

وبين ابن عاشور انطباق هذه الصفة على حالهم « ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون أن من يستمر به التغفل عن نفسه وإهمال التفكر في صلاحها مع مصاحبة شيئين يذكرانه قارب أن يكون منفيا عنه التعقل .»[2].

يوجد في هذا الموضع فاصلتان قصد منهما التوبيخ : الأولى ﴿أفلا تعقلون﴾تعقيبا على تناقض أهل الكتاب بخصوص أمرهم الناس بالبر واتباع الإسلام ..ثم هم في واقع أمرهم تاركون لهذا البر إلى درجة النسيان .فهذا الوضع القبيح إضافة إلى ما يتزعمونه من التكذيب والصد والاعتراض على كل ما هو حق وخير شرعت الآيات في فضيحة الموقف ووصم أصحابه بالتوبيخ والتقريع .

قال في فتح القدير تعليقا على الفاصلة السابقة « ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع ومن توبيخ إلى توبيخ . فقال إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ذائدا لكم عنه زاجرا لكم منه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم .»[3].

قد شرح الرازي هذا المعنى الذي اقتضى التوبيخ « فمن وعظ كان غرضه أن يصير وعظه مؤثرا في القلوب ومن عصى كان أن لا يصير وعظه مؤثرا في القلوب فالجمع بينهما متناقض

---

[1] – الكشاف . الزمخشري . ج66/1.

[2] – التحرير والتنوير . ابن عاشور . ج477/1.

[3] – فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني 200/1 .

غير لائق بالعقلاء ، ولهذا قال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك .»[1].

ومن جملة أدلة العقول التي حرص القرآن على محاجة أهل الكتاب بها أن النفوس مجبولة على مدح أعمال البر وعلى من ألزم نفسه بها ، ما لم يقم دون ذلك مانع من هوى أو من منفعة ، بله أن يدعو الناس إليها . وتذم المقبل على أعمال الإثم والشر، تطلب له الهجر والترك لها . وإذا وقعت في المخالفة في الأمرين جميعا وجدت لذلك من الحريجة والندم ما تعبر عنه بلسان الحال والمقال ، وهذا ملاحظ في عموم الناس .

كما أن من الفطرة كذلك أن المدعو لا بكاد يحتمل أن يدعوه الداعي إلى شيء من عمل البر يريه إياه ويعلمه له ويلزمه به ، فيقع من نفس المدعو موقعه .حتى إذا عاين من أمر الداعي المخالفة إلى أعمال الإثم لم يكد يستسغ ذلك وبالغ في الإنكار عليه ، وان سكت فعلى مضض ؛ إذ أن ذلك يقلل من رغبة المدعو في لعمال الخير والبر مادام يجد من سلوك الداعي صادا يثقل على النفس استيعابه واحتماله خصوصا إذا كان الداعي ممن ينتسب إلى الدين بصلة كالحبر والراهب والإمام عند المسلمين ، لا يختلف في هذا الشعور اثنان مهما كان اختلاف عقائدهما .

وقد وظف القرآن هذا الشعور المشترك في صيغة استفهام إنكاري ، الغرض منه توبيخ القوم على ما يفعلون ﴿*بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون*﴾[2]. عن ابن عباس رضي الله عنهما « أنها نزلت في يهود المدينة،كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينهم رضاع من المسلمين ، أثبت على الدين الذي أنت عليه وما يأمرك به ، وهذا الرجل يعنون به محمدا صلى الله عليه وسلم فإن أمره حق ،فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه »[3].

ففي التحرير والتنوير نطالع ما نصه : « والغرض من هذا هو النداء على كمال خسرانهم ، ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم ، كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما

---

[1] – التفسير الكبير ، الرازي .46/3.

[2] –الآية 44 سورة البقرة .

[3] –أسباب النزول ، علي بن أحمد الواحدي ./14.

يعوضون عليه من مراتب ورواتب فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون الناس بها .»[1].

وقال ابن كثير* : « والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم ؛ حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه . وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ؛ فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهيكم عنه﴾.[2] »[3].

إذ لازم أنه بر وخير التزام الداعي به أولا ليقع من نفس المدعو موقعه ، لكن المخالفة من الداعي —وهو عالم بذلك — إلى أعمال الإثم يوقع في نفس المدعو أنه ليس برا ويؤدي إلى عدم اقتناعه بلزوميته،وخيريته فيهجره،وربما أصر على هجرانه ويكون الداعي سببا مباشرا في ذلك فلا يجد الداعي عذرا مقبولا لنفسه ولا للناس.

---

[1]– التحرير والتنوير ،لابن عاشور (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، وتونس 1984)1/474.

*– اسماعيل بن عمر أبو الفداء عماد الدين بن كثير شافعي مؤرخ ومفسر ولد بقرية شرقي بصرى الشام 701هـ/1301م له تفسير القرآن العظيم مشهور جدا ،وجامع المسانيد والبداية والنهاية في التاريخ وغير ذلك من الكتب .توفي 774هـ/1373م .راجع معجم المفسرين 92/1.

[2] –الآية 88 سورة هود .

[3] –تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير (دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت– ط6 ،1984.) 1/ 148.

6-تجزئة الإيمان بالرسل والكتب :

نختار ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]. وجه الحجة في هذه الآية ما فيها من تسجيل موقف متناقض أولا ، ودال ثانيا على ضعف التدين وفي كلا الموقفين ما يحق المقصود من محاجة المبطلين من اليهود خصوصا . والملاحظ أن القرآن الكريم لم يفوت فرصة هذا التسجيل في صيغة الاستنكار ، فلم يحكه على أنه مسألة تاريخية وقعت دون أن يتم التعليق عليها ، بل ما تم فعلا هو استغلال هذا التناقض وضعف الديانة لقطع شغب المبطلين في دعواهم أنهم على شيء من الدين يمنعهم من الانتقال إلى غيره ..

وقد صدرت الجملة بالاستفهام وواضح أنه ليس حقيقيا لإحاطة علم الله بما يفعلون ولكنه استفهام إنكاري مستعمل في معنيين :

- معنى التوبيخ فقد قال ابن عاشور عن هذا الاستفهام أنه « إنكاري توبيخي أي كيف تعمدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم واتبعتموها في فداء أسراكم »[2].

- ومعنى التهديد زيادة على التوبيخ لقبح ما يفعلون وما يكشف عنه من ضعف الديانة وما يدل عليه من الاستهانة بأحكام الله تعالى فقد قال الألوسي أن « الاستفهام للتهديد والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله تعالى »[3].

وبالبحث في مفردات اللغة نلاحظ كلمة (**الخزي**) ومعناها عند ابن عاشور « ذل في النفس طارئ عليها فجأة لإهانة لحقتها، أو معرة صدرت منها أو حيلة وغلبة تمشت عليها ، وهو اسم لما يحصل من ذلك . »[4].

ويلاحظ أن الخزي جاء منكرا مع وروده في بعض المواضع معرفا ولابد لذلك من فائدة تناسب المقام فلا شيء في القرآن وضع هكذا عريا عن الفائدة ، وتعليل ذلك عند الألوسي أنه « للإيذان بفظاعة شأنه وأنه بلغ مبلغا لا يكنه كنهه »[1]، و التنكير أنسب لذلك من التعريف .

---

[1] -الآية **85** سورة البقرة .

[2] - **التحرير والتنوير . ابن عاشور . 591/1.**

[3] - **روح المعاني . الألوسي .313/1**

[4] **التحرير 1 والتنوير . ابن عاشور ./591.**

ووقع ختام هذه الآية التي اشتملت على إنكار مستعمل في التهديد زيادة على ما وقع فيها من الوعيد وقع ختامها بفاصلة ﴿وما الله بغافل عما تعملون ﴾ فإذا هي تناسب المقام لتأكيد علم الله لما هم عليه من المخالفة ، وصدق ما أوعدهم الله إياه من العذاب ؛ جزاء التلاعب بآيات الله ، ففيها إذن « اعتراض وتذييل لتأكيد الوعيد المستفاد مما قبله أي إنه لبلمرصاد لا يغفل عما تعملون من القبائح »[2] .

وقال الشوكاني* الفتح « وفي قوله ﴿***وما الله بغافل عما تعملون***﴾ من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى فإن الله عز وجل عالما بما يعملونه مطلعا على ما يعملونه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد .»[3].

وإنه بمثل المنطق السابق يناقش القرآن قضية من القضايا الحوار مع أهل الكتاب، ذلك أن اليهود تؤمن بجملة الأنبياء عدا عيسى عليه السلام ، مع ما في إيمانهم من الدخل والتشويه . والنصارى تؤمن بعيسى إضافة إلى ما سبقه من الرسل . وكل من اليهود والنصارى ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، باستثناء من ذكر القرآن إيمانهم من معاصري أهل الكتابين إضافة إلى أن اليهود لا تعترف بالإنجيل ولا القرآن ، والنصارى أيضا لا تعترف ببعض الأسفار ولا بالقرآن ، فهم يفرقون في الإيمان بين رسول ورسول وكتاب. فعاب عليهم القرآن هذا التفريق بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿*أفتومنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحيوة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب* ﴾[4]. وقال في سورة النساء ما نصه ﴿*ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نومن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا* ﴾[5].

---

[1] – روح المعاني . الألوسي . **340/1** .

[2] – المرجع نفسه . **315/1**.

• * **محمد بن علي الشوكاني فقيه أصولي محدث مفسر من علماء اليمن ولد 1173هـ/1760م له فتح القدير في التفسير ، مطلع البدرين وله في فقه الحديث نيل الأوطار توفي 1250هـ/1834م .معجم المفسرين 593/2.**

[3] – فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني . دار المعرفة بيروت لبنان ط: **03. 1997** . ج **1/ 200**.

[4] –الآية **85** سورة البقرة .

[5] –الآية **150** سورة النساء.

والمقصود « أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض ، فمن رد نبوته للحسد أو للعصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به ليس إيمانا شرعيا إنما هو عن غرض وهوى وعصبية.» [1].

وقال سيد قطب:« عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم الذين يكفرون بالله ورسله ، وعد تفرقتهم بين الله ورسله ، وتفرقتهم بين بعض رسلهم وبعض كفرا بالله وبرسله.» [2]. وقال ابن كثير في موضع آخر تعليقا على قول الله تبارك وتعالى ﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾ « أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به لأنه ليس شرعيا ؛ إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلا وأقوى برهانا منه ، أو نظروا حق النظر في نبوته » [3].

ويقول الأستاذ العقاد*:« فإن رسالات الأنبياء جميعا لن تخلو من فضائلها ومسوغات الإيمان بها ، ولن تنحصر الفضائل ومسوغات الإيمان في رسالة واحدة ، مع تقادم الزمن وتفاوت الأمم والإيمان بوجود الله وهدايته للناس منذ تهيأت عقولهم وضمائرهم لقبول الشرائع والمعتقدات.» [4].

فمادام أن المصدر واحد وهو الله تعالى ،وما دام أن الرسالة لها منطق خاص هو المعجزة المصاحبة للرسول ، والتي غابا ما يعاينها الأتباع ثن يتواتر أمر النبوة الآتي بها في الأجيال اللاحقة ، وما دام أن كل رسول سابق يبشر ويوصي أحيانا بالرسول الذي يأتي بعده ، والرسول الأول في ذلك مصدق القول قد حصل الإيمان بجملة حاله.

وكثيرا ما يكون هذا الأمر في كتبهم مسطورا فما المانع إذا من تعميم التصديق بالنبي الذي يظهر في أي زمان أو مكان ما دام قد استكمل عدة النبوة من صلاح الحال والمعجزة الدالة والبشارة السابقة .فأحد الأمرين لازم :

-إما الإيمان بجميعهم تصديقا لحالهم الظاهرة ، وظهور المعجزة .

-وإما الكفر بهم جميعا تكذيبا لمعجزاتهم الظاهرة والبشارات السابقة بهم .

---

[1] – مختصر تفسير ابن كثير ، محمد علي الصابوني . دار القرآن الكريم . بيروت . ط : 07. 1981.. ج1/453 .

[2] –في ظلال القرآن . سيد قطب . 2/798.

[3] –– مختصر تفسير ابن كثير. الصابوني .1/453.

*–عباس محمود العقاد ولد بأسوان 1889 م شاعر وناقد ومجدد ، له في الإسلاميات العبقريات وكتب كثيرة في مختلف مجالات الثقافة بما فيها العالمية توفي 1964م . النجد في اللغة والأعلام 376 .

[4] –التفكير فريضة إسلامية ،العقاد (وكتبة رحاب–الجزائر– بدون تاريخ)/91.

وفي موضع آخر يضيف العقاد : « فهم لا يفرقون بين الأنبياء بقداسة السيرة ولا بعظمة الأثر ولا بشيوع الهداية وكثرة المهتدين بها ولا بفضيلة الهداية في آدابها ومعانيها ، إذ ما من فارق من هذه الفوارق يعتمدونه في تقديرهم هو خليق أن يسوغ لهم تكذيب محمد عليه السلام مع من صدقوهم كما وصفوهم وتحدثوا عنهم في الكنب التي يعولون عليها. »[1]

ولا يقبل القرآن الكريم هذا التفريق المشين بدون فرق ، لأنه محض تحكم . لذلك كان شعار المسلم ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾[2] ؛ لأنه يجمع الأطراف ويستقيم والمنطق السابق وواقع الأمر .

ومثل هذا يقال في الكتب المترلة ، فإن جمعا من الناس والأتباع قد صدقوا رسلهم فيما جاءوا به من الوحي المكتوب فاليهود كما قدمنا تؤمن بالتوراة عموما ، والنصارى يؤمنون بالتوراة والإنجيل معا ، والمسلمون يصدقون بالقرآن الكريم وما صدقه من الكتب السابقة على الإجمال ، ما دام المصدر واحدا ،وأمر الوحي قد قام الدليل على صدوره من الله تبارك وتعالى ،ثم هو منقول عندهم يتحاكمون إليه وينسبونه إلى التقديس .

ويتأكد واجب الإيمان بهم جميعا إذا استبان شاهد الصدق في الكتاب محل النزاع وظهر إعجازه ، وتدعم بتصديق من لا يحصون كثرة له .فأي منطق للتفريق بينها في الإيمان بها وتجزئة التصديق لبعضها دون البعض الآخر .

والقرآن تراه لذلك قد قدم أمر التوراة منسوبة لموسى ،والإنجيل لعيسى عليهم السلام ثم عقب بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب حاكما عليها بالتأكيد لما هو صدق فيها وبالنسخ لما مضى ظرفه ، وبالبيان للزيف الموجود فيها وذلك قول الله تعالى : ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾.

---

[1] – التفكير فريضة إسلامية . المرجع السابق . 93 .

[2] –الآية 285 سورة البقرة .

وقد أنكر الذكر الحكيم على من فرق في إيمانه بالكتاب الواحد ، فآمن بالبعض منه يحكمه ويتبعه ويدعوا إليه ، وكفر بالبعض الآخر يعطله ويحرفه ويكتمه ؛ لما تعارض وأهواءه ذلك أن اللازم لواقع الأمر إما أن يكون الكتاب حقا نؤمن بجميع ما فيه بمقتضى صدق القائل وسلامة النقل والناقل . أو يكون باطلا لتعذر الشرط السابق . أو يكون أحد الأجزاء معلوم البطلان فما وجه استبقائه في الكتاب ونسبته إلى الله؟

وعن قوله تعالى ﴿ *أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحيوة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون* ﴾. يقول السيد رشيد رضا في تفسير المنار، بعد أن قرر ما كان بين بني قينقاع من جهة وبين بني النير وبني قريظة من جهة أخرى:«كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالإخراج من الديار . ومن مثارات العجب إنهم كانوا إذا اتفقوا على فداء الأسرى يفدي كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في الكتاب بفداء أسرى شعب إسرائيل .فإن كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب إسرائيل ، وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك في الكتاب ؟هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين »[1].

ولا شك أن هذا الاستفهام الإنكاري وما يحمله من توبيخ لهم مع القيام بالبرهان على هذا الوجه ،منهج حاسم في علاج القضايا بين الفريقين واضح إلى درجة أن خطابه واسع النطاق يتقبله العامي صاحب القضية ، والمؤمن بسيط المعرفة فهو لا يحتاج إلى أكثر من حضور الذهن والتخلص من غلبة الهوى والتعصب .

ويوشك أن يكون الخطاب هنا بهذه الآية لمن يدعي الإيمان بالله و باليوم الآخر يرجو ثوابه ويخاف عقابه ، ولو أن بقية الآية تنذر بوقوع بعذاب دنيوي هو الخزي ويلحقه أخروي هو النار جزاء الكفر الناتج من التفريق بين أحكام الدين الواحد.

---

[1] – تفسير المنار ، محمد رشيد رضا .1 / 373.

المبحث الثالث

الاحتجاج على أهل الكتاب بمناقضة دليل الحس والمشاهدة

تقدم فيما سبق أن آيات القرآن الكريم التي كانت تخاطب من عاصر من أهل الكتاب زمن النبوة قد تنوعت لتشمل أغلب جوانب النفس البشرية وبجميع أبعادها.ذلك أن طائفة من هذه الآيات ، توجه نظر الخصم إلى ما يقدسه من كتاب ويتبعه من وحي ، وكيف أن القضية المتنازع فيها محل الخصومة يحملها هذا الكتاب وتتكرر في جوانبه ، بشكل يسمح باعتبارها قضية ثابتة تمتنع عن التأويل بدون دليل.

وأحيانا أخرى يوجه العقول المخاطبة ، إلى منطق البرهان والفكر السديد . حين يعرض مواقف يدل التعليل فيها على مسلمة عقلية ، لا يسع الخصم المنصف مخالفتها.

وفي أحايين أخرى يتنزل القرآن إلى أدلة أكثر واقعية ، لها طابعها المادي البحت يراه المنازع أمامه أو يحس به في نفسه . ومن النوع الأخير نقدم نماذج نستكمل بها حلقة الاحتجاج على أهل الكتاب في شقه الأول .

1.شهادة بعض الكتابيين على صدق الرسول:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾،إنه بالبحث في المفردات نجد كلمة ﴿أولئك﴾ « وجيء باسم الإشارة في تعريفهم دون الضمير وغيره للتنبيه على أن الأوصاف التي استحضروا بواسطتها حتى أشير إليهم باتصافهم بها »[1].

وأما الجمل فهي عديدة بين جمل اسمية وأخرى فعلية .

فجملة ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ « اعتراض لبيان حال مؤمني أهل الكتاب بعد ذكر أحوال كفرتهم و لم يعطف تنبيها على كمال التباين بين الفريقين »[2].

وجملة ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ « حال مقدرة أي آتيناهم الكتاب مقدرا تلاوتهم لأنهم لم يكونوا تالين وقت الإيتاء ، وهذه الحال مخصصة لأنه ليس كل من أوتيه يتلوه »[1].

---

[1] – التحرير والتنوير 1/696-697.

[2] – نفس المرجع 1/697.

وفائدة « تقديم المسند إليه على المسند الفعلي الحصر والتعريض »[2] .

وأما آية ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ فهي « تصريح بحكم مفهوم أولئك يومنون به ، وفيه اكتفاء عن التصريح بحكم المنطوق وهو أن المؤمنون به هم الرابحون ، ففي الآية إيجاز بديع على أن الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته هم المؤمنون دون غيرهم فهم كافرون فالمؤمنون به هم الفائزون والكافرون هم الخاسرون .»[3].

ورد ذكر من آمن بالرسالة الجديدة من أهل الكتاب عدة مرات في القرآن الكريم سواء في العهد المكي أو المدني .فمرة يقدم القرآن ذكر هؤلاء في سياق الاحتجاج بهم على من لم يؤمن من قومهم. مع أن هؤلاء المؤمنين من خيارهم ، وذلك باعترافهم أنفسهم ، وقد يم إسلامهم فعلا فلزم من ذلك أنهم قد عرفوا الحق فاتبعوه ، ممن لم يمنعهم مانع من زعامة دينية أو وظيفة دنيوية .

وقد ورد قول الله تعالى ﴿ وشد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾[4]. والمعنى « أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المترلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.» [5].

وفي سورة المائدة ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾[6].

قال الإمام ابن القيم الجوزية معلقا على الآية « قال ابن عباس لما حضر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي النجاشي وقرأوا القرآن سمع ذلك القسيسون والرهبان، فانحدرت

---

[1] – روح المعاني . الألوسي . 372/1.

[2] – المرجع نفسه . 372/1 .

[3] – التحرير والتنوير . ابن عاشور . 697/1.

[4] –الآية 10 سورة الأحقاف .

[5] –تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير .278/6.

[6] –الآية 82–83 سورة المائدة .

دموعهم وجلا مما عرفوا من الحق. فسجل القرآن الكريم ذلك لهم بقوله ﴿***ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون***﴾.

وقال في سورة الرعد في معرض الثناء عليهم وعلى مواقفهم النبيلة ، التي نصر الحق حيثما وجد، وعلى لسان من ذكر دون طاعة لعصبية أو حسد من النفس الأمارة ففي سورة الرعد﴿ *الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك.* ﴾ .

وفي سورة البقرة قوله تعالى ﴿*الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به* ﴾[1]،« يفرحون بما أنزل إليك من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿*الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته* ﴾ وهم جماعة ممن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران . »[2].

فهذه جملة من الآيات يستشهد بها القرآن ،فيها احتجاج على من كذب من الكتابيين في حين آمن من خيار قومهم كثير. مما يدل على أنهم قد عرفوا أمر الإسلام من قبل فلما عاينوا أمر صاحب الرسالة تأكدوا من صدقه فما ترددوا في إتباعه.

وهذا نفسه بجعل الحرج على من كان مثلهم في الديانة والعلم ،ثم رغب عن الإسلام لسبب من الأسباب الكفر والحسد والتحريف و الحرص على الزعامة وحطام الدنيا، قد دنست لذائذ الدنيا قلوبهم ، فصدهم عن تصديقه الكبر المطاع ، والهوى المتبع.

كما أن في سورة النساء تسجيلا للموقف الصحيح الذي ينبغي أن يتخذ ﴿*لكن الراسخون في العلم منهم والمومنون يومنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.* ﴾[3] قال سيد قطب : « وقد ورد في التفسير المأثور ، أن هذه الإشارة القرآنية تعني أولئك النفر من اليهود الذين استجابوا للرسول - ﷺ - »، وقال أيضا عقب ذلك « فالذين يتعمقون في العلم ، ويأخذون منه بنصيب حقيقي ، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة.. »[4].

---

[1]- الآية **21** سورة البقرة .

[2]- تفسير المراغي . مصطفى المراغي .مكتبة مصطفى البابي الحلبي . مصر . ط : **02** . **1953**. ج**211/1**.

[3]- الآي **162** النساء.

[4] - في ظلال القرآن . سيد قطب . **804/2**.

2-إخبار القرآن بما في نفوسهم :

محل الشاهد ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.﴾[1]. وقوله ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ.﴾[2].

وجه الاحتجاج بهذه الآية أن القرآن أخبر عما في النفوس وما يدور في خلد الخصم ، كما أخبر عن هذا المكنون أنه ينكشف .

ووقع في قوله ﴿ما ولاهم عن قبلتهم﴾ الاستفهام كغيرها من الآيات لما في الموقف من الإنكار والاستبعاد ، فالاستفهام فيما حكي من كلامهم ، ينكرون على المؤمنين هذا التغيير للقبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام فلا يرونه من الدين ، ولا من سلامة العقل أما من جهة الدين فلأن القبلة التي لا يؤمنون بغيرها هي بيت المقدس ، وأما العقل فإنهم قالوا إن كان التوجه إلى بيت القدس صحيحا حرم تغييره وإن كان خطأ ذهبت عباداتهم الأولى إليها ،والغرض من الإنكار في المقالة ما فيه من « التعريض بالتخطئة واضطراب العقل »[3].

وأكد الإنكار بجملة ﴿التي كانوا عليها﴾ «وفي وصفها بذلك بعد إضافتها إلى ضمير المسلمين تأكيد للإنكار »[4]. ومضمونه « زيادة توجيه للإنكار والاستغراب إي كيف عدلوا عنا بعد أن لازموها و لم يكن استقبالهم إياها مجرد صدفة فإنهم استقبلوا الكعبة ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك . . ﴾. »[5] .

-« فلذا أكدت الجملة الدالة على نفي اتباعهم بالقسم واللام الموطئة »[6].

---

[1]-الآية **142** سورة البقرة .

[2] -الآية **145** سورة البقرة .

[3] – التحرير والتنوير . ابن عاشور . **08/2**.

[4] – روح المعاني . الألوسي . ج **2/2**.

[5] – التحرير والتنوير . ابن عاشور . **09/2**

[6] – نفس المرجع **35/2** .

-« وجملة ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ معطوفة على جملة ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ وما بينهما اعتراض ، وفائدة هذا العطف بعد الإخبار بأنه لا يتبع قبلتهم زيادة تأكيد الأمر باستقبال الكعبة ، والتحذير من التهاون في ذلك ..»[1] .

وأما جملة ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ « جملة خبرية لفظا ومعنى سيقت لتأكيد حقيقة أمر القبلة كل التأكيد وقطع تمني أهل الكتاب »[2].

ولو أخذنا آية أخرى نموذجا جديدا للمحاجة ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم إن الله على كل شيء قدير﴾ .

بالبحث في الأدوات نجد حرف (لو) يسبق المضارع ﴿ يردونكم ﴾ وقد أشار ابن عاشور أن « لو هنا بمعنى أن المصدرية ولذلك يؤول ما بعدها بمصدر .»[3]، ويصبح التعبير في غير القرآن هكذا « ود كثير من أهل الكتاب ردكم كفارا .. »[4].

وتوظيف المضارع ﴿يردونكم﴾ لإفادة الاستمرار والدوام على هذا السعي في كل زمان وأما ﴿كفارا﴾ فقد وقعت حالا ، من ضمير المخاطبين وفائدته عند الألوسي « مقارنة الكفر بالرد فيؤذن بأن الكفر يحصل بمجرد الارتداد مع قطع النظر إلى ما يرد إليه »[5].

وأما التعبير بلفظ **حسدا** واقعا موقع حال من ضمير ود، وهو يحصر أن هذا الود منهم « لا سبب له إلا الحسد لا الرغبة في الكفر »[6] و في هذا زيادة على أن المخاطبين بالآية كانوا يحسونه من أنفسهم لحظة السعي إليه ، فهو إدانة صريحة بأنهم ينبعثون من مجرد الحسد لا تفضيلا للكفر

---

[1] – التحرير والتنوير المرجع السابق . 37/2

[2]– المرجع نفسه . 37/2.

[3] –المرجع نفسه . 1/ 670.

[4] – المرجع نفسه . 670/1 ,

[5] – روح المعاني . الألوسي 356/1.

[6] – التحرير والتنوير . ابن عاشور . 670/1.

على ما عليه هؤلاء المؤمنون وقد دل التاريخ على صدق هذه الحقيقة وهي أن المسيحية سعت طويلا إلى مجرد رد المؤمنين عن إيمانهم ولو إلى الكفر لا يهم إذا لم يكن للنصرانية .

وعبارة ﴿من عند أنفسهم﴾ جيء فيها بمن الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم ، وأكد ذلك بكلمة عند الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكنه .

- وقد ختمت الآية محل الشاهد بفاصلة معهودة في القرآن الكريم وهي قوله ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ وفيها فن التذييل وأفاد هذا التذييل معنيين :

- فقد« أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن ولكنه لحكمته أمركم بالعفو عنهم »[1]، وهو« تذييل مؤكد ، وفيه إشعار بالانتقام من الكفار ووعد للمؤمنين بالنصرة والتمكين »[2].

ومن ضمن ما قدمه القرآن احتجاجا على أهل الكتاب ، إخبارهم بما في نفوسهم ساعة خلواتهم، أو مع بعضهم مما يتداولونه من التكذيب لمن أرسل سبحانه ، أو التصديق الخفي بما أنزله الله من الوحي . وهذا دليل مادي يقع من القوم موقعه ، فيفضح ما كان باطنا في الصدور ويجعل القوم يحجمون عن الكلام ومواصلة الحجاج.

ففي تحويل القبلة مثلا ، ذكر القرآن في سورة البقرة ، أن سفهاء أهل الكتاب سيتكلمون بالشغب على أمر الله ورسوله بتجديد القبلة وتحويلها إلى مكة : ﴿*سيقول السفهاء من الناس ما وليهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .*﴾[3].

وهذا يتضمن أمرين : الأول أنه أخبر بغيب سيقع ، والثاني عن كلام سيقال ووقع فعلا كما أخبر فلم يستطع أحد منهم أن يتمالك نفسه فيحجم عن القول . ولو ملك أهل الكتاب أنفسهم وتظاهروا بقبول الأمر لكان في ذلك حجة لهم . لكن دفعهم السفه إلى الكلام فقرروا على أنفسهم مقالة القرآن وصدق الله العظيم .

---

[1] - التحرير والتنوير . المرجع السابق . **671/1**.

[2] - روح المعاني . الألوسي **358/1**.

[3] -الآية **142** سورة البقرة .

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : « أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت :أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من وقوع الاضطراب إذا وقع لما يتقدمه من توطين النفس ، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشبهته، وقبل الرمي يراش السهم. »[1].

وإنما وصفهم بالسفه لأن الاعتراض الذي لجوا فيه لا محل له، فهم يعلمون من كتبهم صدق النبي الجديد واختصاصه بقبلة جديدة.ولو لم يكن الأمر كذلك لما وصفهم القرآن بالسفه؛لأن الأمر المستغرب يدفع بصاحبه إلى الكلام والتساؤل بل حتى إلى الإنكار، ثم يجيب القرآن بالتعليل ويفهم المخاطبين حقيقة الأمر .

وأيضا جزم القرآن أن الرسول لو أتى أهل الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلته ،وهذا غيب كان يمكن التظاهر بتكذيبه .لكن حجة الله دامغة ، فلم يحصل ذلك ولو من باب التمويه منهم. وذلك قوله ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم.﴾[2] وقوله أيضا ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض.﴾[3].

ولذلك قال الزمخشري « ولئن جئتهم يا محمد بكل برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ما تبعوا قبلتك ، لأن تركهم إتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة إنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق. »[4].

وقال أيضا «يعني أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم كما لا ترجى موافقتهم لك.وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس،والنصارى مطلع الشمس.أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه فالمحق منهم لا يزل عن مذهبه ، لتمسكه بالبرهان ؛ والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته في عناده»[5].

---

[1] الكشاف ، للزمخشري 1/98-99.

[2] -الآية 145 سورة البقرة .

[3] الآية 145 سورة البقرة .

[4] -الكشاف ، المرجع السابق . 1/101 .

[5] الكشاف ، الزمخشري . 1/101 .

وأيضا أخبر أن أحدا من أهل الكتاب من يهود ونصارى لا يحدث أن يتبع قبلة الآخر ولو تظاهرا أمام الرسول والمؤمنين ؛لاستحكام العداوة من اليهود للمؤمنين وللنصارى أكثر.فوقع في نفوس القوم الصدق،ولكنهم لم يؤمنوا ،وكفى بقيام الحجة على الخصم.

كما أخبر القرآن عن بعض ما يقولونه إذا أمرهم القرآن أو الرسول بشيء من الإيمان والعمل ﴿سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين.﴾ وهذا الغيب الذي يخفى على المؤمنين من حال القوم ،لكن اليهود يتخفون به عنهم يحسبونه يخفى على الله ،فيظهره الله على لسان رسوله حجة له عليهم ؛لأنه يخبر عن دخيلة القوم وما يقع في مجالسهم مع تواصيهم على كتمانه خوفا من الرسول وأن يفضحهم القرآن .

كما أخبر تعالى عن سعيهم لأجل أن يكفر المؤمنون ويكذبوا الرسول ليس لغياب الدليل على صدق هذا الرسول، أو انحراف أصاب من اتبعه .ولو كان الأمر كذلك لكان الحق لا يلامون على تركه ، ولو كان الأمر بسبب دليل من نص كتاب أو وصية نبي منهم على عدم الإيمان بنبي غيره أو بخصوص نبي يسميه لهم بل ولو نقل تحريفا في كتبهم اسم نبي زور يجب التكذيب به لقلنا أضلهم غيرهم .

لكن المسألة لها وجه آخر،ذلك أن القوم قد برح بهم ما أصابهم من حسد شديد للنبي الجديد، وللعرب تنتقل إليهم النبوة بعد أن تكون نزعت من بني إسرائيل. فالأمر إذن معصية ظاهرة أهلكت القوم .إنه داء الحسد، وقد عز دواء لهذا الداء. وإنه البغي والظلم ؛ أن يحجر على مشيئة الله في أن يخص قوما من فضله ﴿ولا تومنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله﴾[1] .

---

[1]-الآية 73 سورة آل عمران.

وقد جاء في موضع آخر ﴿أم يحسدون الناس على ما آتيهم الله من فضله.﴾[1] وقال في سورة البقر ﴿ود الذين كفروا من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.﴾[2]، كان «كعب بن الأشرف اليهودي ،كان شاعرا وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه كفار قريش في شعره ، وكان المشركون واليهود من المدينة حين قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه أشد الأذى ، فأمر الله نبيه بالصبر على ذلك والعفو عنهم ، وفيهم أنزلت ﴿ود كثير من أهل الكتاب . . فاعفوا واصفحوا .﴾»[3].

3ـ تحديهم بطلب الموت دليلا على الصدق:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4] .

تضمنت هذه الآية حجة جديدة بل محاجة زائدة على ما تقدم فبعد أن قدم دعواهم بجملة « مستأنفة مسوقة للدخول في فن آخر من أراجيفهم التي يحيكونها .»[5] ، أورد على سبيل الحكاية عنهم من أن الدار الآخرة وخصوص ما فيها من نعيم يكون حسب دعواهم خاصا خالصا لهم من دون سائر الناس وقد كرر معنى الاختصاص في الآية بعدة صور منها :

- التصريح بكلمة ﴿خالصة﴾ .

- التعبير بـــ﴿ لكم ﴾ « مشعر بأن المراد من الدار الآخرة نعيمها »[6] ،

- التعبير بـــ﴿من دون الناس﴾ -« وقوله من دون الناس توكيد لمعنى الاختصاص المستفاد من تقديم الخبر ومن قوله خالصة لدفع احتمال أن يكون المراد من الخلوص الصفاء من المشارك في درجاتهم مع كونه له حظ من النعيم.»[7]. وأفاد قوله ﴿دون﴾:« للاختصاص وقطع الشركة »[1].

---

[1] الآية 109 سورة البقرة.

[2] الآية 54 سورة النساء

[3] – أسباب النزول ، الواحدي ./22.

[4] ـ الآية 96 سورة البقرة .

[5] – إعراب القرآن . الدرويش 1 /149.

[6] – التحرير والتنوير 614/1.

[7] – ابن عاشور 615/1.

وفي تقديم لفظ ﴿لكم﴾ نكتة وهي أن « ولكم خبر كانت قدم للحصر بناء على اعتقادهم .»[2] .

أورد الحجة تبعا لمدعاهم فقال ﴿فتمنوا الموت..﴾ ولا شك أن العدول عن أن يطلب منهم التلفظ بذلك أو الدعاء إلى التعبير بالتمني ينطوي على سبب بلاغي وجيه ، ذكر الزمخشري في تعليقه على الآية ذلك على طريقته فقال: « فإن (قلت) التمني من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا (قلت) قلت ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه ليت لي كذا فإذا قاله قالوا تمنى ، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر ، ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا قد تمنينا الموت في قلوبنا و لم ينقل أنهم قالوا ذلك .»[3].

وأما قوله تعالى ﴿ولن يتمنوه أبدا﴾ فهي جملة معترضة لبيان وتأكيد عجزهم عن التمني المطلوب ويحكم على الدعوى بالسقوط ما دام لم يتوفر لها شرط الصدق وهو تمني الموت لقاء ما عند الله مما يزعمونه من الكرامة .

وأما التعبير بـــ ﴿أيديهم﴾ مع أن ما يكسبونه يكون باللسان كما كان الشأن في الطعن في القرآن أو من عمل القلوب كالكفر بالرسول ، فإن ذلك كناية عن جميع الأعمال ، وقد قال ابن عاشور بعد حكاية هذا القول عن الواحدي « ولعل التكني بها دون غيرها لأن أجمع معاصيها وأفظعها كان باليد .»[4].

وأما فاصلة ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فقد تضمنت معنيين :

– **التنبيه** :« فقد نسبهم إلى الظلم ووجه ذلك أنهم ظالمون في ادعاء ما ليس لهم ونفيهم عن غيرهم »[5].وبين إحاطة علم الله بوقوع ذلك منهم مع حرصهم على إخفائه ، وقد علموا ما

---

[1] – الألوسي 227/1.

[2] – ابن عاشور 614/1

[3] –الكشاف 82/1.

[4] – التحرير والتنوير . ابن عاشور 616/1.

[5] – روح المعاني . الألوسي . 328/1

أعده الله للظالمين»،خبر مستعمل في التهديد لأن القدير إذا علم بظلم الظالم لم يتأخر عن معاقبته .»[1].

التهديد : « تهديد لهم »[2]، ويظهر وجه الناسبة أن ما ادعوه من الاختصاص لا دليل لهم عليه من كلام النبوة ثم فيه من المزايدة على الآخرين من سائر أتباع الرسل فعقب الله تعالى على كلامهم بعكس المقصود وهو أنهم إن كان لهم شيء في الدنيا فهو الظلم الواقع منهم وفي الآخرة جاء الظالم فهو تهديد زيادة على تكذيبهم .

وهكذا يمعن القرآن في إقامة الحجة عليهم، فيقبل التحدي منهم ويحكي دعواهم ، مع أنه لم يذكر لهم حجة يقدمونها ، إنهم يزعمون الاختصاص بالدار الآخرة من دون الناس و بأن الجنة نصيبهم من دون الآخرين ، لا يضرهم ما هم عليه من الذنوب و المخازي كما يزعمون الاختصاص بولاية الله ومحبته لهم من دون سائر الأمم ولا يذكرون لذلك مزية ذاتية خاصة ، ولا عملا متقبلا ، ولا يعتبرون لتكذيب وحيه وقتل رسله وتحريف كتبه وزنا إدعاء لهذا الكذب العريض ، وترديدا له في كل مجمع وناد يفخرون به على الناس وعند لقاء المؤمنين.

ولا شك أنهم حاولوا ادعاءه أمام الرسول - ﷺ- ، أو عرضوه عليه أو بلغه ذلك عنهم فأمره القرآن بأن يقبل التحدي وأن يطلب منهم تمني الموت ولو بقلوبهم إن كانوا صادقين . لا بد إذن من مواجهة هذا التهريج الذي طال وملت منه الأسماع ، ثم هي فرصة جديدة للرسول والمؤمنين من أجل تقليم أظافر المبطلين وإلزامهم عاقبة الكذب الصريح ، خشية على ضعاف النفوس من أهل الكتابين وحتى المؤمنين من تصديقه أو التأثر به ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾[3].

وقال في سورة الجمعة بيان صريح في أن قائل هذه الدعوى الكاذبة هم خصوص اليهود الساكنين في المدينة الذين ربما أدى بهم رفق صاحب الرسالة في بداية الأمر إلى التطاول عليه

---

[1] – التحرير والتنوير . المرجع السابق . 616/1.

[2] – الكشاف . الزمخشري .82/1.

[3] –الآية 96 سورة البقرة .

وعلى أتباعه ودينه وأن الجنة التي يسعى الجميع إليها إنما هي لهم وحدهم من غير حاجة إلى اتباعه فيما يقول :﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين.﴾[1].

نجد في تفسير المنار : « يقول إن صحت دعواكم وصدق قولكم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وأنكم شعب الله المختار فلن تمسكم النار إلا أياما معدودات ، لا تزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه، فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم ، الذي لا منازع لكم فيه ولا مزاحم ، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين.»[2]

أخبر أن أحدا لا يفعل مثل هذا المطلوب ولن يفعل مثل هذا التمني إذ يمنعهم من ذلك ذنوبهم العظام ، وما هم عليه من المعاصي والمخازي . وتأكدهم من صدق الرسول الخاتم ، وشدة الأمر عليهم . وكشف القرآن عن حقيقة مرة هي أعمق ما تكون في نفوسهم إنها الحرص على الحياة أي حياة ، بدرجة ملفتة للنظر إنهم يتجاوزون في ذلك كل الناس حتى المشركين منهم . وتخصيص المشركين بالذكر لبيان شدة الانحراف . فالمشركون لا يؤمنون بالحياة الآخرة فإذا حرصوا على الدنيا كان أمرا مفهوما ، أما أنتم فأهل كتاب تقرأون فيه صدق الوعد باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من الكرامة وما أوعد أعداءه فيه من المهانة بسبب ذنوبهم والأعراض عن أمره .

ولقد فسر الإمام الشوكاني في تفسيره التمني الوارد في الآية بالتلفظ لا مجرد التمني بالقلب فقال : « والمراد بالتمني هنا هو التلفظ بما يدل عليه ، لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه فإن ذلك لا يراد في مقام المحاجة ، ومواطن الخصومة ومواقف التحدي ، وفي تركهم للتمني أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف و التجري على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت إما لأمر قد علموه أو للصرفة من الله عز وجل . »[3].

---

[1] –الآية 06 سورة الجمعة .

[2] –تفسير المنار ، محمد رشيد رضا . 1/ 389 .

وهذه الدعوى العريضة كانت تجوز على غير المؤمنين ممن لا كتاب معهم أيام الجاهلية والإسلام لم يظهر بعد ، إذ مهما يكن من أمر المعاصي التي يقترفونها ، إلا أن ما هم عليه من التدين ونسبة الكتاب إليهم ونسبتهم إلى الكتاب وأمر التوجيد وبقية الشرائع التي يتوارثونها وجزء منها صحيح النسبة إلى النبي الذي يضيفونها إليه ، يجعلهم ربما يتيهون على العرب وعموم من لا كتاب عندهم من الأميين . ويتميزون عنهم بولاية الله لهم ومحبته لهم .

لكن هذه الدعوى لا محل لها الآن وقد وضح الدين التمام الذي يصدق ما بين يديه من الكتاب و يجعل من مهامه ترشيد التدين الموجود لأهل الكتاب المعاصرين له والآتين من بعده. وكان من المطلوب كذلك منهم أن لا يزايدوا بإيمانهم وهم أعلم بضحالته على أتباع الدين الجديد الذين يعاين أهل الكتاب صدق تدينهم وشدة إخلاصهم للإسلام ولنبيهم وحرصهم على إقامة حياتهم على منهج الوحي الخاتم الذي يتكفل الله بحفظه . لكن القوم لم يتمالكوا أمرهم ، وجروا على الهوى القديم يستعجلون الفضيحة وذل الدهر فانكشف للجميع حجة القرآن عليهم وغلبته لهم ، وإحاطة أدلته بهم حتى لم يبق لهم مخرجا من الأمر .

- مباهلة المكذب :

- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ .

لفظة (**حاجك**) هنا تكون بمعنى « خاصمك وجادلك ، وقارعك الحجة ، والمحاجة هي المفاعلة ، ولا تقع إلا من اثنين فصاعدا .»[1]، وهذا هو جرى عليه البحث من أن المحاجة أخص من مطلق الحجة .

ومعنى فعل ﴿تعالوا﴾ « هلموا والمراد المجيء بالرأي والعزم كما تقول تعالى نفكر في هذه المسألة »[2]، وإلا فهم أمامه خصوصا من حضر عنده من وفد نجران .

و إطلاق عبارة العلم في جملة ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ **المراد به** « لآيات الموجبة للعلم ، وإطلاق العلم عليها إما حقيقة لأنها كما قيل نوع منه ، وإما مجاز مرسل ، والقرينة عليه ذكر المحاجة المقتضية للأدلة »[3].

- جملة ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ « كلام مستأنف مسوق لتقرير ما تقدم ذكره »[4]. والضمير في قوله لهو القصص « ضمير فصل ، ودخلت عليه لام الابتداء لزيادة التقوية التي أفادها ضمير الفصل ، لأن اللام وحدها مفيدة تقوية الخبر وضمير الفصل يفيد القصر أي هذا القصر أي هذا القصص لا ما تقصه كتب النصارى وعقائدهم »[5].

- وضمير الفصل يفيد « القصر الإضافي كما يفيده تعريف الطرفين و﴿الحق﴾ صفة القصص وهو المقصود بالإفادة أي-إن هذا هو الحق- لا ما يدعيه النصارى من كون المسيح عليه السلام إلها وابن الله سبحانه وتعالى »[6].

---

[1] – إعراب القرآن . محي الدين الدرويش . **1 /524**.

[2] – الكشاف . الزمخشري . **193/1**.

[3] – روح المعاني . الألوسي **187/3**.

[4] – إعراب القرآن . المرجع السابق . **526/1**.

[5] – التحرير والتنوير . ابن عاشور **267/3**.

[6] – روح المعاني . الألوسي **190/1**

- وعبارة ﴿وما من إله إلا الله﴾ « تأكيد لحقية هذا القصص ، ودخلت من الزائدة بعد حرف النفي تنصيصا على قصد نفي الجنس لتدل الجملة على التوحيد ، ونفي الشريك بالصراحة ، ودلالة المطابقة .»[1].

بينما « ﴿من﴾ زائدة للتأكيد كما هو شأن الصلات ، وقد فهم أهل اللسان –كما قال الشهاب–أنها لتأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية لاختصاصها في الأكثر »[2].

وأما فاصلة ﴿إن الله لهو العزيز الحكيم﴾ ف«*الجملة تذييل لما قبلها ، والمقصود منها أيضا قصر الإلهية عليه تعالى ردا على النصارى أي قصر إفراد* »[3] .

–وفاصلة «﴿إن الله لهو العزيز الحكيم﴾ أفاد تقوية الخبر عن الله تعالى بالعزة والحكم»[4].

وهذا دليل آخر لمن عاصره وحجة زائدة على من كذبه ، ولم يسارع إلى واجب تصديقه ثم هي من البراهين المادية الملموسة ، إذ يقف فيها الخصمان وجها لوجه فلا مجال حينئذ للمزايدة ولا مكان للإدعاء ، فأحد الطرفين سيتزل عليه غضب من الله جزاء كونه كاذبا فيما يقول مفتريا فيما يدعي .

وأهل الكتاب بما فيهم اليهود كانوا من أعلم الناس بباطل ما هم عليه وصدق الرسول الخاتم ، وأنهم إنما يزورون مقالات وحججا واهية يقدمونها بين يدي أتباعهم من العامة كلما احتاجوا إلى ذلك لتبرير ما هم عليه من التهود والتنصر ، والرغبة عن الإسلام .

جاء في سبب النزول « جاء راهبا نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم.فقال لهما : أسلما تسلما . فقالا : قد أسلمنا قبلك . قال:كذبتما ؛ يمنعكما من الإسلام سجودكما الصليب وقولكما اتخذ الله ولدا وشربكما الخمر فقالا ما تقول في عيسى ؟ قال فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن﴿ *ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . .*﴾ فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاعنة وجاء بالحسن والحسين وفاطمة وأهله وولده عليه السلام ، قال

---

[1] – التحرير والتنوير . ابن عاشور 267/3.

[2] – روح المعاني . الألوسي 191/9.

[3] – روح المعاني . الألوسي 191/3.

[4] – التحرير والتنوير .ابن عاشور 267/3.

فلما خرجا من عنده قال أحدهما لصاحبه :أقرر بالجزية ولا تلاعنه ، فأقر بالجزية قال : فرجعا فقالا : نقر بالجزية ولا نلاعنك »[1].

ففي هذا النص التاريخي يحاور الرسولﷺ وفد نجران ومن ورائهم يحاور كل مسيحي بوصفه الداعي الجديد إلى الله ،المبعوث إلى الناس كافة بما فيهم من لهم كتاب أو شبهة كتاب . وقد دلت ظروف القصة على مدى ما أحاطهم به عليه السلام من الاحترام والتقدير أمام المؤمنين واليهود جميعا، حين تركهم يؤدون مراسيم عبادتهم في المسجد وعلى مرأى من المسامين مع ما في عقيدتهم مما ينافي التوحيد بل يجسد الوثنية كل ذلك توصلا إلى مقفل قلوبهم وتوفيرا لجو هادئ يتم فيه السؤال والجواب بعيدا عن التحامل والتراشق بالتهم مما يسببه اضطراب التفكير ، والانغلاق على الذات وليتبين للمسلمين التطبيق الحقيقي والدقيق لمبدأ مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن .

ولما تم التمهيد للحوار بكل ما تقدم وبمختلف أساليب الحجة والإقناع ، وظهر جليا للحاضرين مدى التعصب والجمود على المعتقد والعجز عن إقامة البرهان على ما يعيش الإنسان عليه من دين ،كثيرا ما يدفع حياته ثمنا للثبات عليه .هناك كان لا بد من أن يتم المشهد بالحسم في المواقف يحمل كل طرف مسؤولية ما هو عليه من رأي ويصر عليه من مذهب ختم الرسول الحوار بدعوة الأطراف جميعا إلى ما يبين صدق المدعى وعمق الإيمان إنها المباهلة التي يتم فيها الدعاء من الفريقين لله الذي يجتمعون على تعظيمه على معاقبة الكاذب والانتقام منه ، من أهله إنه لا شك موقف صعب وكاشف لكل زيف ، أنه الهلاك السريع الكاذب .

إنما ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النفس الشريفة الأبناء والنساء ،مع أن القصد من المباهلة تبيين الصادق من الكاذب وهو يختص به وبمن يباهله لأن ذلك أتم في الدلالة على الثقة بحاله وصدق مقاله وفي هذه القصة أوضح دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم ؛وإلا لما امتنعوا عن مباهلته.

---

[1] – أسباب النزول للواحدي /67.

وفي تفسير القرطبي* « ولعل الآية الآنفة من سورة آل عمران ، والتي نزلت في هذه القصة ، تعد من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منه ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه ، اضطرم عليهم الوادي نارا . فإن محمدا نبي مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى. فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم ، على أن يؤدوا في كل عام ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب.فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك. »[1].

ولا شك أنه «كان لامتناع نصارى نجران من المباهلة التي دعاهم إليها النبي وأشارت إليها الآيات**59-64** من سورة آل عمران الأثر البالغ في ترسيخ اعتقاد المسلمين أن عيسى ليس سوى بشر خلق بواسطة الأمر الإلهي كن وأن القول بألوهيته من باب الشرك واتخاذ أرباب من دون الله ، وبالخصوص أن النصارى كاذبون فيما يدعونه فيه ،وأن توليهم عن المباهلة دليل على انهم مفسدون.»[2].

ومن جهة أخرى فإن « الآية تتناول المحاجة فيه بكل ما جاءه من العلم . ويظهر من خلال الآية ومن جو القصة ، أن هؤلاء القوم لم يريدوا الاقتناع بل دخلوا في جدل عقيم لا يحقق أي هدف، ولا يصل إلى أي نتيجة ؛ مما دعا النبي ﷺ إلى طرح المباهلة عليهم كأسلوب من أساليب التأثير النفسي الذي يشعرهم بالثقة المطلقة بالعقيدة الإسلامية وبمفاهيم الدعوة الجديدة ..حتى أن النبي ﷺ كان مستعدا لأن يعرض نفسه للموقف الصعب عندما يقف مع أهل بيته ليواجهوا الآخرين بالوقوف بين يدي الله ..فيما تنازعوا فيه فيطلبوا منه سبحانه أن يجعل اللعنة على الكاذبين.»[3].

---

* **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري كان إماما علما، من مصنفاته : الجامع لأحكام القرآن .توفي 671هـ . شذرات الذهب .ابن عماد الحنبلي 5/ 335.**

[1] **-الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . ج 104/4.**

[2] **-الفكر الإسلامي في الرد على النصارى ، عبد المجيد شرفي /305 .**

[3] **- الحوار في القرآن . محمد حسين فضل الله 1/ 160.**

ويتبين من تنويع الأدلة والبراهين القرآنية أن : على الداعية أن لا يهمل أي عنصر من عناصر التأثير على الآخرين في إيصالهم إلى الحقيقة ، أو في الإيحاء إليهم بالاطمئنان إلى قوة هذه الحقيقة حتى ليقف الإنسان في أشد المواقف حراجة في مجال التحدي لثقته بان الدعوى في المستوى القوي لمواجهة التحدي بأقوى منه [1].

[1] – المرجع نفسه . 1/169-170.

الفصل الثالث

الاحتجاج على أهل الكتاب بدليل الإيمان

الاحتجاج على أهل الكتاب بدليل الإيمان

- المبحث الأول: الاعتداء على حق الله وميثاقه .
- المبحث الثاني: الاعتداء على حق الرسل والوحي .
- المبحث الثالث: الاعتداء على حق الإنسان .

المبحث الأول

الاعتداء على حقوق الله ومواثيقه .

1-ترك عهد الله بالتوحيد .

تقتضي حقيقة أخذ الله تعالى من بني إسرائيل العهد وخصوصا العهد بالتوحيد أن يلتزموا هذا العهد ، ويستمروا عليه لا يبدلونه فتلك هي حقيقة الإيمان ، ولا حقيقة له غير ذلك ، فإذا لم يحصل اللازم ، وهو الدوام على العهد ، بطل ما يزعمونه من الإيمان بالله وبالتوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك ولا دخل .. وقد أثبت عليهم القرآن أخذ الميثاق بالتوحيد ، كما أثبت عليهم نقض هذا الميثاق ؛ وبالتالي يكون قد نزع منهم حقيقة الإيمان ولا شك أن الرسول كان يجهر بهذا الأمر بينهم فلا يجدون منه خلاصا بل يجدون مصداقه فيما بين أيديهم من الكتب ..وقبل تفصيل ذلك نتناول بالدرس اللغوي الآية النموذج التي حملت هذه الحجة الجديدة ، وقد اخترنا من سورة البقرة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1] .

كان سياق الآيات القرآنية السابقة بإضمار المخاطب في مثل ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا﴾[2]، وأما ههنا فقد عدل عن الإضمار إلى الإظهار ، وهذا المسلك القرآني في توجيه الخطاب وتلوينه مرده عند ابن عاشور إلى أمرين فقد قال : « وأظهر لفظ ﴿بني إسرائيل﴾ وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين :

أحدهما أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل وتوقيفهم على مساويهم فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم . .﴾[3] الآية .

---

[1] – سورة البقرة الآية **83**.

[2] – الآية **41** سورة البقرة .

[3] – الآية **40** سورة البقرة .

ثانيهما أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ..» [1].

ويمكن أن يقال أن موضوع التوحيد وأخذ العهد به، وواقع التفريط فيه اقتضى إظهار المخاطب للاهتمام بالأمر أكثر؛ لما في الإظهار من مزيد ذلك عن الإضمار، وأما سائر ما ذكر من قبل فهو من توابع التوحيد .. لا نفس التوحيد.

وجملة ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ بيان للميثاق المأخوذ فهي « مبدأ بيان للميثاق »[2] .

وفيها جهتان من جهات البلاغة :

– ومما يبين مزيد الاهتمام الوارد في هذا المقام وجود الالتفات وهو فن بلاغي له غرضه المهم فلم يقل ألا يعبدوا إلى الله وكأن الحاضرين منهم لا شأن لهم به ، بل عبر بخطاب يشمل الحاضرين .

فحصل هنا « الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله لا تعبدون ومن خطاب بني إسرائيل القدامى إلى خطاب الحاضرين منهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .»[3].

–والتعبير بالخبر عن الشيء بديلا عن الأمر به معروف فـــ« مجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لان الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه »[4]. وبعبارة الألوسي أن ذلك « أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي كأنه سارع إلى ذلك فوقع منه حتى أخبر عنه بالحال أو الماضي .»[5].

---

[1] – التحرير والتنوير . ابن عاشور 582/1.

[2] – التحرير والتنوير . ابن عاشور 582/1.

[3] – إعراب القرآن . الدرويش 137/1.

[4] – التحرير والتنوير . ابن عاشور 1/ 582.

[5] – روح المعاني . الألوسي 307/1.

وهذا نفس ما ذهب إليه الزمخشري « إخبار في معنى النهي كما تقول تذهب إلى فلان تقول له كذا ، تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ؛ لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه .»[1].

والذي يهم هنا هم من كانوا في عصر الرسالة لأنهم طرف المحاجة المقصودة « لأن المخاطبين حين نزول القراءات هم المقصودون من هذه الموعظة .»[2]. وإن كان في جمعهم مع كثير ممن مضى منهم حجة زائدة أن هذا الإعراض في هم عن العهد قديم يجعلون توارثهم دينا يتبع في وجه كل نبي وصاحب رسالة ..

وختمت آية المحاجة بعبارة ﴿وأنتم معرضون . .﴾ عدل فيها القرآن عن التعبير بالفعل فأعرضتم إلى التعبير بالجملة الاسمية ، فالفاصلة هنا « جملة حالية ولكونها اسمية أفادت أن الإعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة منهم »[3].

التوحيد هو عهد الله على عباده ، ورأس دعوة كل نبي لقومه فما من رسول إلا وقد جهر في قومه بوحدانية الله دون غيره من كل إله مزعوم ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[4] وقد ذكر القرآن على لسان كثير من أنبياء بني إسرائيل الدعوة إلى التوحيد وإفراد الله بالألوهية فعلى لسان موسى عليه السلام وهو أعظم نبي فيهم ﴿إن كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مومنين﴾[5]، وعلى لسان ملكة اليمن زمن سليمان عليه السلام ﴿ إني أسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[6] وعلى لسان عيسى عليه السلام ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾

---

[1] – الكشاف . الزمخشري .1/78–79.

[2] – التحرير والتنوير . 1/582.

[3] – التحرير والتنوير . ابن عاشور . 1/584.

[4] – الآية 25 سورة الأنبياء .

[5] – الآية 84 سورة يونس.

[6] – الآية 44 النمل .

[1]، وفي موضع آخر ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأويه النار﴾[2]. و عبارة ﴿يا قومي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[3] على لسان كثير من الأنبياء مشهورة.

وفي إنجيل **متى** نقرأ ما يلي « لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » ، وفي إنجيل يوحنا « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » يوحنا **03/17** ، وفي أشعياء : « إني أنا الله وليس غيري إلها وليس لي شبه » (**9/47**).

وغير هذا من النصوص كثير ، ومع كل ذلك فقد انحرف بنو إسرائيل شر انحراف فاتخذوا من دون الله شركاء ، وألهوا من دلائل البشرية فيه ناطقة . ويتكرر ذكر الآلهة في أسفار التوراة « فالفصل الثاني والعشرون من سفر الخروج يتكلم عن حكم الآلهة مرارا وتكرارا ، ولا سيما في المباهلة المأخوذة من نموذجها المصري : « وإذا لم يوجد السارق يقدم صاحب المترل إلى الآلهة ليحلف » ، (**8/22**) و« كل دعوى جناية فإلى الآلهة ترفع ..ومن تحكم الآلهة عليه يعوض صاحبه مثلين (**9/22**).»[4]، فمن عبادة العجل الذي له خوار إلى تأليه عزير وعيسى، إلى اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال .

وقد ذكر القرآن ما اتخذوه من آلهة مزعومة في آيات ومواضع متعددة منها ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار﴾[5]، وقوله ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يوفكون﴾[6]، وقال أيضا ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلا إلها واحدا لا اله إلا هو﴾[7]

---

[1] – الآية **51** سورة آل عمران .

[2] – الآية **72** المائدة.

[3] –الآية **23** سورة المؤمنون .

[4] –التوراة بين الوثنية والتوحيد ، سهيل الديب/**85**.

[5] – الآية **148** سورة الأعراف .

[6] – الآية **30** سورة التوبة .

[4] – الآية **31** سورة التوبة .

[5] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري . دار الفكر .بيروت .**1984**. **440/7**.

ولذلك فسر علماؤنا معنى الآية الأخيرة انه لما شرعوا لهم فاحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحرام فأطاعوهم فذلك معنى الربوبية فيهم .

قال الطبري في تفسيرها: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب. فقال يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك ، قال فطرحته وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم . .﴾ قال : قلت يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم . فقال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ قال : قلت بلى . قال : فتلك عبادتهم.» [1].

وهذا المعني واضح من الوجهة التاريخية تفصيلا لصدق ما نطق به الرسول تفسيرا للآية السابقة فالشعب إذن له« مرشدوه القوميون فالحبر الأكبر هو وحده المنوط به تمثيل إسرائيل أمام الأسياد من فرس وإغريق ، وأصبحت فلسطين بذلك دولة تستمد حكامها ولايتهم من الله . وظلت على ذلك حتى في عهد المكابيين الذي ظن فيه اليهود أنهم حققوا فيه استقلالهم ففي ذلك كان الحاكم ملكا وقسا أكبر في آن واحد. »[2].

وفي سورة البينة ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلواة ويوتوا الزكواة﴾[3]. ومن مجموع ما ذكرنا من نصوص القران والإنجيل والتوراة وما توافقت فيه من الدعوة إلى التوحيد ، نتبين كيف أن بني إسرائيل يدل واقع ما هم عليه خصوصا زمن النبوة من مناقضة حق الله ومواثيق رسله بالتوحيد وكيف أن النصارى قد دخلوا في زمرة الشرك والمشركين ولذلك ليس من مجانبة الصواب تصنيف النصرانية في صيغتها النهائية ضمن الأديان الوثنية .

ولوحظ جليا كيف أن من جاء بعدهم من الأجيال اللاحقة قد « انحرفوا على مدى الزمن وهبطوا في تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات وأثبتوا في كتبهم المقدسة وفي صلب التوراة أساطير وتصورات عن الله لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية. »[4].

1-جامع البيان . الطبري 352/6.

[2] – المسيحية . شار جنبيير /34 .

[3] – الآية 05 سورة البينة .

4– العقيدة في الله ، عمر سليمان الأشقر . قصر الكتاب البليدة–الجزائر–1990. /256.

وينسب المؤرخون مثل هذا الانحراف الخطير في النصرانية إلى بولس الطرسوسي الذي كان العدو الأكبر لدعوة المسيح وفجأة دخلها بأمر خارق يذكره المؤرخون ، وشرع في تحريف تعاليم الديانة الجديدة بالزيادة و النقصان لتوافق الوثنيات السائدة يومها « ودخل بولس المسيحية كما سبق وكان عارفا بالفلسفة الإغريقية التي تمثلها مدرسة الإسكندرية ووجد بولس الميدان خاليا واستخف الطرب بعض المسيحيين لأن عدو المسيحية اللدود قد انتسب إليها وبدا بولس يضع البذور التي نقل بها المسيحية من الوحدانية إلى التثليث ووافقت فكرة التثليث الجماهير . وكانت الجماهير قد نفرت من اليهودية لتعصبها ومن الوثنية لبدائيتها فوجدت في الدين الجديد ملجأ لها وبخاصة انه أصبح غير عن معارفهم السابقة التي ألفوها ورثوها عن آبائهم وأجدادهم »[1].

ويقول الشيخ أبو زهرة في مسلك النصارى في التوفيق بين توحيد التوراة وتثليث الأناجيل المعتمدة خصوصا إنجيل يوحنا: « وهي ـــ التوراة ـــ تصرح بالتوحيد وتدعوا إليه وتحث عليه وتنهى عن الشرك بكل شعبه وكل أحواله بل تدعوا إلى البراءة من المشركين »[2]. وقد ورث عيسى عليه التوراة وورثها أتباعه بعد أن صحح ما طرأ عليها من التحريف عبر الزمن ، وأكد ما يحتاج إلى التأكيد وجهر في بني إسرائيل بما فيها من الأحكام والتعاليم . وخصوصا ما تدعوا إيه من التوحيد . ثم انظر إلى ما حصل فيها بعد ذلك من الانحراف .

ثم قال أيضا : « وهم - النصارى ـــ يجتهدون في أن يستنبطوا من نصوصها ما يحملونه معنى الإشارة إلى التثليث كعبارة كلمة الله وعبارة روح الله ، وثانيا يحاولون أن يرجعوا التثليث إلى الوحدانية »[3] والعجيب أن هذا المسلك اللئيم لا يقوم به الوثنيون حرصا منهم على عدم مغادرة ما تركوه من الآلهة وهم بصدد الانتقال إلى المسيحية بل إن من قام بهذا المزج أو قل المسخ لديانة المسيح عليه السلام هم المسيحيون أنفسهم .

---

[1]- راجع النصرانية . أبو زهرة /65-70.

[2]- المرجع نفسه /95.

[3]- المرجع نفسه. /95.

وقال في تعليل ذلك « ولعل ذلك تتميم للفلسفة الرومانية التي كانت تحاول الجمع بين مسيحية المسيح عليه السلام ووثنية الرومان ، وتوراة اليهود بما تحمل من وحدانية ظاهرة لا وثنية فيها إلا التجسيد أو ما توهمه بعض عباراتها »[1].

ولبيان التوحيد في الذي في التوراة ننقل ما يلي :

«لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع تمثالا منحوتا » (الخروج: **02/20**).؟

«لا تسجد لآلهتهم ولا تعبدها ولا تعمل كأعمالهم بل تبيدهم وتكسر أنصابهم وتعبدون الرب إلهكم» (الخروج **24/23-25**).

وفيها«من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك » (الخروج**10/22**)، « لا تلتفتوا إلى الأوثان والهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم أنا الرب ألهكم»(اللاويين **04/19**).

[1] – المرجع نفسه **95**.

2- مناقضة عهود الله ومواثيقه :

يدل سياق الآيات القرآنية أن الله قد أخذ من بني إسرائيل من أجيالهم المتلاحقة عهودا موثقة إذ كثيرا ما يذكرهم بها ويوبخهم على نقضها . وفيما نورد آيات كريمة تدل على ذلك : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾، وقال في سورة الأعراف ﴿ألم يوخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون .﴾ ثم قال ﴿ثم توليتم إلا قليلا وانتم معرضون﴾ وقال أيضا في سورة آل عمران ﴿وإذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا﴾[2].

ويمكن ههنا اختيار نموذج ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[3]﴾ فإن هذه الآية جبهت بني إسرائيل زمن صاحب الرسالة بالخصوص بكونهم ينبذون العهد ، ويرتدون إلى المخالفة مهما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ..

أنه بالبحث في المفردات نجد همزة الاستفهام ﴿أ﴾،كما نجد كلمة ﴿كلما﴾.

- أما حرف الاستفهام الذي وقع صدر هذه الآية الكريمة في قوله ﴿أوكلما﴾ فهو كما قال ابن عاشور « استفهام مستعمل في التوبيخ »[4]، فمقتضى الإيمان الذي يدعونه أن يثبتوا على العهد ولكنهم لا يلبثون أن ينبذوه . فأين الإيمان إذن ؟ وهل الإيمان إلا الثبات على عهد الله تعالى ..

-وتفيد عبارة ﴿كلما﴾ الاستمرار في هذا الشأن من العهد ونبذ العهد ، و مصداق هذه الآية – نموذج المحاجة- مطابقة للحقيقية التاريخية المحكية حتى في الكتاب المقدس من أن « اليهود موسومون بالغدر وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا وكم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم »[5].

---

[1] – الآية 169 الأعراف .

[2] – الآية 87 آل عمران .

[3] – الآية 100 سورة البقرة .

[4] – التحرير والتنوير. ابن عاشور 651/1.

[5] – في ظلال القرآن . سيد قطب. 200/1.

كما أنه قد وقع بدل نقض العهد التعبير بفعل ﴿نبذه﴾ وهو يعطي زيادة على النقض صورة حية حسية لما يفعلونه بعهود الله كلما أخذوا بها « والنبذ إلقاء الشيء من اليد وهو هنا استعارة لنقض العهد ، شبه إبطال العهد وعدم الوفاء به بطرح شيء كان ممسوكا باليد كما سموا المحافظة على العهد والوفاء تمسكا. »[1].

ووقع التعقيب أخير بجملة اسمية ﴿بل اكثرهم لا يومنون﴾ وفي التعبير بالاسمية نسبة دوام ذلك النبذ، والنقض والاستمرار عليه وترتب حقيقة أنهم في كل زمان أكثرهم لا يومنون وسكت عن متعلق الإيمان ليشمل ما خصوا به من ديانة .

وفيه أيضا كما قال ابن عاشور -« وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنه يوفي حق خصمه في الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتدرج وتدبر قبل الإبطال »[2].

ففي جملة هذه الآيات وغيرها تذكير لبني إسرائيل من أهل الكتابين بما سبق وأن قطعوه على أنفسهم من العهد لله أن يعبدوه وحده وألا يعبدوه إلا بما شرع . ففي تفسير المنار بيان لطبيعة هذا العهد : « عهد الله تعالى إليهم يعرف من الكتاب الذي نزله إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وان يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم ، وعهد إليهم أن يرسل إليهم نبيا من بني إخوتهم – أي بني إسماعيل –يقيم شعبا جديدا. »[3].

وقال ابن كثير في تفسير آية ﴿ألم يوخذ عليهم ميثاق الكتاب.﴾:« يقول تعالى منكرا عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه ، وقال ابن جريج قال ابن عباس ﴿ألم يوخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق﴾ ،قال فيما يتمنونه على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها »[4].

1-التحرير والتنوير . 625/1.

2- – المرجع السابق . 625/1.

3 – تفسير المنار 1. محمد رشيد رضا ./ 400.

4 – تفسير القرآن العظيم . ابن كثير 520/2.

والسياق القرآني يدل على أن هذه العهود كانت متكاثرة كما كان نقضها والسعي في التخلص منها كان متكاثرا كذلك . كما أن النص يدل أيضا على أن هذا السعي لم يكن عاما في جميع القوم . بل إن فريقا منهم يقع منهم ذلك ثم يقع الرضا من المجموع بذلك فيتزلون منزلة من فعل الفعل بالأصالة . كما أن الظاهر أيضا أن هذا في خصوص اليهود ، وذلك قول الله تعالى : ﴿أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يومنون.﴾ [1].

ولقد قال الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه من الكشاف : «واليهود مسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا ،وكم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفوا ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ ، والنبذ الرمي بالزمام ورفضه . ثم قال ﴿فريق منهم﴾؛ لأن منهم من لم ينقض بل أكثرهم لا يومنون بالتوراة ، وليسوا من الدين في شيء فلا يعدون نقض المواثيق ذنبا ولا يبالون به .» [2].

والذي يلفت النظر كلمة ﴿كلما﴾ وهي تدل على أن نقض العهد عملية متكررة عند اليهود. فكل عهد يعقدونه سرعان ما يتبعونه بالنقض مهما كان الطرف الآخر الذي عقدوه معه لأن كلما حرف يفيد التكرار والاستمرار ويدل على تحقق وتوفر وجود شرطها .

كما أن آية ﴿وإذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا﴾[3]، قد تناولت العهد بالتبليغ إلى الناس ما يكون قد انزل الله من وحي وتركه الأنبياء من نبوة .سواء تعلق الأمر بالتعاليم أو تعلق الأمر ببشارات لاحقة بشأن عموم الأنبياء ، وخصوص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، التي ما من نبي إلا وقد بشر به وأوصى قومه باتباعه فيكون الكتمان ههنا متعدد الوجوه إما بالإخفاء أو التأويل أو الزيادة والنقص كما سيأتي مفصلا في محله . وآية سورة البقرة ﴿وإذ اخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾ تتكلم عن العهد بعبادة الله وإفراده بالطاعة ، وعن إقامة الصلاة .. وأن القوم قد تولوا عما كانوا عاهدوا الله عليه ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾.

---

[1] – الآية 100 سورة البقرة

[2] – الكشاف ، الزمخشري 166/1.

[3] - الآية 187 سورة آل عمران ..

وقد عبر القرآن عن الفريق الذي يسعى في نقض ما أخذه الله على نفسه بأنه الكثير من القوم والأغلبية ﴿أكثرهم﴾ ، وذلك إما بالسعي المباشر أو بالرضى عن الساعي ، واتباعه فيما يفعل جهلا أو تقليدا بعد ما تبين لهم منه الخطأ . وعلى كل فالعهد قد تم نقضه مرارا ومن أكثر القوم ، فاقتضى ذلك أن الإيمان المزعوم في قلوب القوم لا حقيقة له عند التحقيق ؛ إذ مقتضى الإيمان أن يدفع صاحبه إلى العمل والطاعة ومراعاة مواقع رضا الرب ، مهما كلف صاحبه مكن التضحيات ، كما يقتضي ثباتا على الأمر ، ما لم يقع ضرر اكبر يترخص فيه بإخفاء الطاعات توقتا من الخطر الداهم .

والقوم قد اختصوا عبر الزمان بالدعاوى العريضة في سبق إيمانهم عند الله ، وأفضليتهم على الناس ، وبعظم ما هم عليه من أمر النبوة . والأدلة كلها تهدم هذه الدعاوى سواء ما كان منها من القرآن أو من دليل العقل أو من واقع حال القوم ، ومما حمله التاريخ البعيد والقريب عنهم .

المبحث الثاني

الاحتجاج بالاعتداء على حق الرسل والوحي .

1-الصد عن سبيل الله :

ومما احتج به القرآن وحاج به المبطلين من خصومه بني إسرائيل أنه أثبت عليهم جريمة الصد عن سبيل الله ، ولا شك أن هذا مخالف للإيمان بل مذهب لأصله ، وهو أن مقتضى الإيمان دعوة الناس إليه تارة بالكلام ، وأبلغ ذلك بالسلوك الصحيح على وفق ﴿سبيل الله﴾ المذكورة في الآية ، فإذا خالف الداعي هذه السبيل سهل على المدعوين بل دفعهم إلى المخالفة والمنابذة وفي ذلك من الشر مات لا يخفى .

جملة الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [1]، إنما هي « كلام مستأنف لتأكيد الإنكار والتوبيخ »[2]؛ على ما يتم من صد المؤمنين عن السبيل الصحيح،وسواء كان المقصود بالمؤمنين هنا من آمن برسالة النبي عليه السلام ، بإلقاء الشبه عليهم في دينهم ، أو كان المقصود هنا مؤمني أهل الكتاب يشككونهم في أحقية ما اختاروه من ديانة الإسلام .

وقد افتتحت الآية بعبارة ﴿يا أهل الكتاب﴾ وفي ذلك من زيادة تسجيل الموقف موقف الجريمة عليهم باعتبارهم أهل علم وكتاب ما كان ينبغي لهم يفعلوا ما يفعله أهل الجهل والعدوان ممن لا علم عندهم ، « وافتتح المقول بنداء أهل الكتاب تسجيلا عليهم »[3].

---

[1] – الآية 99 سورة آل عمران .

2 –إعراب القرآن 06/4.

[3]– المرجع نفسه .25/4.

وفي افتتاح الآية بنسبتهم للكتاب دلالة على قبح ما يأتون به كما قال الإمام الألوسي « خاطبهم بعنوان أهلية الكتاب للإيمان به وبما يصدقه مبالغة في تقبيح حالهم »[1]. في التصدير بـ﴿لـم﴾«استفهام إنكار »[2]، وهو عند الألوسي « استفهام للتوبيخ والإشارة إلى تعجيزهم عن إقامة العذر في الكفر كأنه قيل : هاتوا عذركم إن أمكنكم »[3].

وقد مر كثيرا أن التعبير بالمضارع في مثل ﴿تصدون﴾ يفيد الدوام والاستمرار على ذلك الصد ودلت الآية على نواياهم في هذا الصد بجملة ﴿تبغونها﴾ فهي « مستأنفة جيء بها كالبيان لذلك الصد »[4]. وعبارة « ﴿عوجا﴾ حال وقع فيها المصدر موضع الاسم المشتق أي المعوجة وفي هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريق البالغة »[5].

وجملة ﴿وأنتم شهداء﴾ دلالة على ما هو واقع في نفوسهم وحاضر ساعة الصد عن سبيل الله ، وقد أشار إلى ذلك ابن عاشور « وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم مما لا يعلمه إلا الله أن ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم ، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم »[6].

ونشهد هنا فاصلة مناسبة للآية لأن يفعلونه كان يتم في الخفاء ، ومقاصده منهم مخفية على من يصدونهم ، وأما الله تعالى ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه « وعيد وتهديد وتذكير لأنهم يعلمون أن الله يعلم ما تخفي من الصدور »[7].

يندرج هذا المطلب ضمن ما احتج به القرآن على أهل الكتابين من مناقضة مقتضى الإيمان بالله ورسله ، وما جاءوا به من وحي . وذلك أن كل طائفة منهم تزعم صدق إيمانها بالله والتعظيم لصفاته والإتباع لرسله وتقديس ما لديها من كتاب .

4- روح المعاني . الألوسي 14/4.

1- التحرير والتنوير . ابن عاشور 25/4.

2- روح المعاني . المرجع السابق . 14/4.

3 – المرجع نفسه . 15/4.

4- إعراب القرآن . الدرويش . 06/4.

6- التحرير والتنوير . ابن عاشور 27/4.

6 – المرجع نفسه . 2/4.

ولما كان أهل الكتاب زمن الرسول متواجدين بين أظهر المؤمنين ، خيف على ضعاف المؤمنين الوقوع في دائرة الاشتباه والتردد مما يرون أهل الكتاب عليه من الرفض للنبوة الجديدة خصوصا وأن هؤلاء لم يكتفوا بمجرد الموقف السلبي منها الذي هو عدم الإيمان والبقاء على ما هم عليه من اليهودية أو النصرانية ، بل إنهم راحوا يعلنون عداوتهم للرسول الخاتم ، ويلقون الشبه حول القرآن ويعترضون على الأحكام حتى ربما وقع في نفس الناظر أن لهم ما يتمسكون به من الدليل أو شبهة الدليل.

فالقرآن وهو يترل تطرق لهذا الموقف الكنود من اليهود خصوصا . ذلك أن منطق الأشياء يقتضي أنهم ما داموا لم يؤمنوا بالإسلام وقد أقرهم على ما هم عليه من الكتاب و المتابعة لأنبيائهم ، فليتركوا الناس إذن وما يختارون في أمور دينهم والاعتقاد . وهذا من القرآن تترل إلى الحد الأدنى الذي يقره الإسلام وهو حرية العقيدة ﴿لا إكراه في الدين﴾[1].

ويبدوا أن القرآن قد ساير أهل الكتاب أول الأمر في المدينة في السكوت عن قضايا الخلاف أو قل بدقة قد أغضى عما كان يعرفه منهم من الإعراض والصد الخفي لمن يريد الإيمان أو لمن آمن فعلا، لكن الأمور تطورت فيما بعد لما تورط اليهود خصوصا وعموم أهل الكتاب في المواجهة الفعلية لأمر الله ، مرة بالشبه وأخرى بالاعتراضات، والتصريحات المناوئة للرسول صلى الله عليه وسلم وأخيرا بدعم الكفر والمنافقين في ساحات المواجهة الدامية ،كما حدث في غزوة الخندق وغيرها .

ومن هذا المنطلق شرعت الآيات تنعى أهل الكتاب أن يتورطوا في هذا المسلك الذي يحشرون به في دائرة الكفار ؛ إذ أنهم ما اهتموا بأن يدعوا الناس إلى دينهم وقد بقوا معهم دهرا طويلا ولا دلوا الناس على الدين الجديد مع بقائهم هم على دينهم اليهودية ،ولا تركوا الناس أحرارا يختارون عن قناعة ما يتمسكون به من دين وعقيدة .فوصف القرآن الكريم هذا التردي في السلوك بالصد عن سبيل الله ورسله وكتبه.

وكرر هنا مخاطبتهم (يا أهل الكتاب) توبيخا لهم على ما يفعلون إذ مقتضى أن لهم كتابا علمهم بأن الكفر جريمة ، وأن الدين حق وأن هذا الإسلام الذي يعادونه موجود عندهم دليل

---

[1] - الآية 256 سورة البقرة .

صدقه من مالا يحصى عده وجها فما معنى أن يخالفوا كتابهم فيضلوا الناس ، ويرجعوهم إلى الكفر فينئون بهم أن يعبدوا الله .

وما معنى أن يفضلوا الكفر الصريح على الإسلام الصحيح ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلا﴾« والآية تشير إلى ما وقع من بعض اليهود ، وفيهم كعب بن الأشرف وحيي بن الأخطب، فإنهم بعد وقعة أحد طمعوا أن يسعوا في استئصال المسلمين ، فخرجوا إلى مكة ليحالفوا المشركين على قتال المسلمين ، فنزل كعب عند أبي سفيان ، ونزل بقيتهم في دور قريش ، فقال لهم المشركون : أنتم أهل كتاب ولعلكم أن تكونوا أدنى إلى محمد وأتباعه منكم إلينا فلا نامن مكركم ، فقالوا لهم : إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوا إليه محمد وأنتم أهدى سبيلا ، فقال لهم المشركون : اسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا . ونزلت هذه الآية إعلاما من الله لرسوله بما بيته اليهود وأهل مكة .»[1].

وما معنى أن يدفعهم إلى هذا الصد هوى متبع ومصلحة آنية وحرص على زعامة اجتماعية وهل لهم في كتبهم ما يجيز لهم ما يفعلونه بالدين الجديد وبأتباعه ولاشك أن مجرد وصفهم بالصد وبابتغاء العوج في الدين ربما جعلهم يثوبون إلى رشدهم مما هم فيه من العناد المطغي والجحود الشديد . وقد وقع التصريح بالصد في حقهم في آيات كثيرة، مرة تتكلم عن عموم أهل الكتاب بما فيهم العامة وأخرى عن الأحبار والرهبان وثالثة عن خصوص إحدى الطائفتين. فمن الأولى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فهذه الآية تفصح عن الصد الواقع ، وكيف أن المفروض فيهم ما داموا أهل كتاب أن يبغوا للناس الطريق المستقيم لا أن يضلوهم ، وأنهم ما داموا أهل كتاب فهم يعلمون قطعا خطأ ما هم عليه من الصد والسعي في الأمر عوجا.

---

[1] –التحرير والتنوير . ابن عاشور 86/5.

فمن الواجب أن يكفوا عن ذلك لكن القوم لا يزيدهم هذا إلا إصرارا « أي لأي شيء تصرفون من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبعه عن الإيمان وهو سبيل الله الموصلة إلى رضوانه ورحمته بما ترقي عقل المؤمن به من العقائد الصحيحة ، ومن نفسه بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، تصدون عنها بالتكذيب كبرا وحسدا وإلقاء للشبهات الباطلة مكابرة وبغيا ، والكيد للنبي والمؤمنين بغيا وعدوانا ﴿تبغونها عوجا﴾ أيلم تصدون عنها قاصدين بصدكم أن تكون معوجة في نظر من يؤمن ويغتر بكيدكم ﴿وأنتم شهداء﴾ بأنها سبيل الله المستقيمة ، لا ترون فيها عوجا ولا أمتا ، عارفون بما ورد فيها من البشارة عن الأنبياء .»[1].

والمهم أن القرآن قد أكد عليهم محبة الضلال والاستمرار في الغضب، إقتداء بالسلف منهم ،وسيظهر للمؤمنين مصداق هذه الآية عندما يلج أهل الكتاب في هذا الصد بكل أنواعه، وينكشف ما كان مطويا في الصدور، من بغض هذا الدين والكيد له.

كما نجده في هذه الآية : « يتوجه إليهم بكلمات لا تخلوا من المرارة والوعيد ..فقد كان المفروض أن يكونوا الشهداء على صحة دعوة النبي محمد باعتبارهم من اهل الكتاب الذي يعرفون ما فيه ..فإذ بالقضية تنعكس ، إذ يتحول هؤلاء الشهداء إلى عناصر مضللة ، تصد الناس عن سلوك الطريق المستقيم ، إلى الطريق المنحرف المعوج .إنه يتساءل عن السبب في ذلك كله ، كمن يريد أن يبدأ معهم الحوار من هذا المنطلق ، ليفسروا موقفهم ، فيجيبهم على ذلك ؛ ليصل إلى الحقيقة ولكن الآية ..في أسلوبها الاحتجاجي تنطلق في إطار التعرية لتفصح –بأبلغ بيان – عن الانحراف الخطي ، بفعل العوامل الذاتية التي تسببه وتظهره ..ويختم الآية بالوعيد ، في الإعلان بأن الله سبحانه –ليس بغافل عن ذلك كله – بل هو في علمه الواسع الذي يحصي كل شيء مهما كان دقيقا وخفيا ، ويحاسب على كل شيء حسابا عسيرا ، للذين يتمردون على إرادته ويتحدون رسالاته »[2] .

---

[1] – تفسير القرآن العظيم . ابن كثير 345/2.

[2] – الحوار في القرآن . حسين فضل الله 1/ 149-150.

ومن الثانية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾[1]، فهذه الآية صريحة في أن الصد الواقع من العامة ليس عن جهل ، بل هو في صدور القوم وعند علمائهم وتحت عناية العارفين منهم وإشرافهم ، وأنهم كانوا السابقين إليه فلما رأتهم العامة اتبعتهم واقتدت بهم كشأنها معهم في كل المواقف السابقة واللاحقة .

والقرآن بهذا يحمل الأحبار المسؤولية كاملة فيما يقع من الإعراض ، إذ إضافة إلى أن الصد كان منهم أسبق ، لم يقع منهم إنكاره على العامة لما ذهبت فيه كل مذهب . خصوصا وأن المؤمنين يعاينون هذا الصد منهم يوميا . وسيقوم مؤمنة أهل الكتاب بعد ذلك بتفسيره لهم ما داموا قد تعرضوا له من الأحبار زمن ضلالهم .

2- تحريف الكتب :

محل الشاهد ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [2]، ﴿يحرفون الكلم﴾ وأن التحريف « الميل إلى حرف أي جانب أي نقله من موضعه إلى طرف آخر »[3].

و نجد كلمة ﴿من بعد﴾ القرآنية في قوله تعالى « ﴿من بعد مواضعه﴾ أبلغ في تحريف الكلام ؛ لأن لفظ بعد يقتضي أن مواضع الكلم مستقرة وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة في كتاب التوراة »[4].

وأما عبارة ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . .﴾ ، ففيها أن « تنكير ﴿شيئا﴾ للتقليل والتحقير لأن الاستفهام لما كان بمعنى النفي كان انتفاء ملك شيء قليل مقتضيا انتفاء ملك الشيء الكثير بطريق الأولى »[5].

---

[1]- الآية 34 سورة التوبة .

1 - الآية 41 سورة المائدة .

2 - التحرير والتنوير . ابن عاشور 200/6.

3- المرجع نفسه . 200/6.

4 - المرجع نفسه . 201/6.

مبنى الحجة التي يقيمها القرآن على أهل الكتاب تحت هذا المطلب ناحيتان :

الأولى : زعمهم صدق ما عندهم من الوحي ، وسلامة ما هم عليه أوصياء من أمانة الكتاب بحيث إذا وقع السؤال عن هذه الأحكام التي في هذه الكتب يخبرون عنها كما هي في واقع الحال ، وإن حدثوا الناس فإنما يحدثونهم بما هو موجود لا يغيرون منه شيئا .لكن القرآن لا يعترف لهم بذلك خصوصا وقد جعلوها حجة لعدم الإيمان به إكتفاء بما هو عندهم .

فالقرآن يصمهم بتهمة التحريف ، وأنه في الكتب وعن الكلام الذي فيها ، وكذا في فهم النص المكتوب . فكان مقتضى هذا التحدي أن يعرضوا ما هو مكتوب عندهم أمام الأشهاد يقرأه الناظرون فيكون ذلك حجة لهم على القرآن إن كانوا صادقين . فعلم عجزهم وظهور حجة القرآن عليهم .

أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا نسخم وجوههما ويخزيان قال : كذبتم إن فيها الرجم ﴿فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هي تلوح –أي آية الرجم– فقالوا يا محمد إن فيها الرجم ، ولكنا كنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما، فلقد يجأ عليها –ينحني–يقيها الحجارة بنفسه .»[1].

الثانية : زعم استقامة أقوالهم واعتقاداتهم وأعمالهم على مقتضى ما هم عليه من الدين ، ذلك أن العرب وغيرهم كانوا بحاجة إلى من يفسر لهم ما معنى أن لا يؤمن أهل الكتاب بالرسول الخاتم وهو يعظم من شأن أنبيائهم ، ويصدق ما بين أيديهم من الكتاب ، ، ويحرم جملة ما هو محرم عند أهل الكتاب ، ولماذا يناصبونه كل هذه العداوة فلا يتميز بذلك موقفهم عن موقف الوثنيين ممن لا عهد لهم بكتاب، ولا وحي ولا رسول .

فإذا احتج هؤلاء بالتزاماتهم مع أديانهم ، وأنها تفرض عليهم عدم الإيمان بنبي غيره ، وإتباع غير ما تركه فيهم من وحي . فربما اقتنع من لا علم عنده بما يقولون يحسبهم صادقين .. وبلا

---

1 – تفسير المراغي . مصطفى المراغي . 117/6.

ريب فان أهل الكتاب خصوصا اليهود كانوا يفاتحون المؤمنين بشأن أديانهم ومسؤولية البقاء عليها .

فأخبر القرآن أن الالتزام منعدم من جهتهم وبأنهم لا عهد لهم ، ولا يوجد عمليا ميثاق بينهم وبين أديانهم لتورطهم فيها بالتحريف بكل أنوا عه ولا شك أن هذا حجة للقرآن ما دام لم يكونوا على شيء من الالتزام ، و لم يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحريف فسقط في أيديهم ، وتم أمر الله ﴿وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته﴾[1].

[1] – الآية 115 سورة الأنعام .

المبحث الثالث

الاحتجاج بالاعتداء على حق الناس .

1-أكل أموال الناس بالباطل :

نختار قوله تعالى ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]، نموذجا للمحاجة المقصودة .

جملة ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾ والتعبير فيها بالجملة الاسمية دال على استمرارهم في ذلك إلى الأجيال التي توجه إليها خطاب القرآن بالمحاجة بل إلى أزمنتنا هذه وفي كل الأزمنة،وقد مر كثيرا إفادة الجملة الاسمية معنى الدوام والاستمرار .

وأما ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ ففيه ما في قبله من التعبير بالاسمية ، كما أن فيه إضافة الأموال لعموم الناس ، فيفيد عموم الأموال لعموم الناس وهذا معروف في العربية ، ولو أن العموم مستفاد من الجمع الوارد في ﴿أموال﴾ ، والجنس في ﴿الناس﴾ ، وهذه من أدوات العموم كما هو معلوم .

وختمت المحاجة بفاصلة مناسبة تنسبهم إلى الكفر لما في أعمالهم المذكورة من الكفر بسبب استحلالهم ما حرم عليهم أنبياؤهم ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما .﴾ .

إن مما يقدمه القرآن الكريم حجة له على أهل الكتاب لما تركوا الإيمان بالوحي الأخير دون أن يكون لهم مبرر قوي من وحي سابق أو دليل عقلي واضح ، يقدم رده على حال التدين الذي يظهرونه للناس ، ويبالغون في إظهاره وتقديس أشكاله بين أقوامهم والعامة منهم وكذا أمام من لا يعرفهم من الأغراب . فالقرآن لا يعترف لهم بصدق هذا التدين فهو تدين بمقياس القرآن وهمي ، وما هو إلا أهواؤهم يلبسونها أسماء دينية ، وطقوس يحرصون عليها متكررة هم أعرف الناس بعدم جدواها في الدين .

---

[1] – الآية **161** سورة النساء .

والأعمال هي وحدها هي التي تجسد صدق الإيمان وسلامة المعتقد. ذلك أن الإيمان أمر في القلوب ، وباب الدعوى فيه عريضة ، والقول وإن كان باطلا ربما موه الأحبار به على العامة ، فيفهم من لا عقل له عندهم أنهم علماء وأنم لهم نصيبا من التدين ، فربما حسدهم على ما هم عليه من القرب من الله . فيقف القرآن عند مسألة الالتزام العملي طويلا

فبالرغم من عدم ذكر تفاصيل كثيرة لجرائمهم ، إلا أن الجزء المقدم حجة يكفي للوقوف على الحقيقة ، فاليهود وعموم أهل الكتاب كانوا أهل تجارة بما في ذلك أحبارهم والرهبان . وطبيعة التجارة وطول الزمن وتقلبات السوق تظهر صدق الوقوف على حدود الشرع التي طالما يذكر بها الأحبار والرهبان ويعظون بها أقوامهم في كل مناسبة فيتكشف للأطراف جميعا مبلغ المراوغة والاحتيال والاعتداء على أموال الضعيف والغريب ومن لا طاقة له بهم .

ففي قوله تعالى ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ إشارة إلى « أكلهم أموال الناس بالباطل أي بغير استحقاق ولا استيجاب وهو ما كانوا يأخذونه من أثمان الكتب التي يكتبونها بأيديهم ويقولون هذا من عند الله وما أشبه ذلك من المآكل الخبيثة عاقبهم الله على جميع ذلك بتحريم ما حرم من الطيبات »[1].

تكلم القرآن الكريم عن الربا وكيف أنهم استحلوه مع ورود النهي عنه في كتبهم كما نصت عليه الآية ﴿وأكلهم الربا وقد نهوا عنه﴾ قال ابن كثير في تفسيرها : « إن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع الحيل ، وصنوف الشبه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل.»[2].

ووجه الاحتجاج عليهم بها أنه كان بإمكان القوم أن يروا الناس هذه الكتب ليعلم فراغها مما يشير إليه القرآن إن كانوا صادقين ، ودلالة على أنه عندهم حلال فلذلك يتعاملون به أو أن كتبهم تخلوا من ذكر هذا التحريم ، أو أنه م لا علاقة لهم بالربا عكس ما يقول القرآن . ولكنهم لا يستطيعون لصدق حجة القرآن عليهم وتورطهم في الربا بكل أنواعه .

---

[1] – مجمع البيان ، الفضل بن الحسن الطبرسي . دار مكتبة الحياة –لبنان– (بدون تاريخ) **288/3/2**.

[2] – تفسير القرآن العظيم . ابن كثير **450/2**.

كما أخبر القرآن أنهم أكالون للسحت ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ وهي لفظة عامة في كل ما هو حرام ، يؤخذ بطرق ملتوية من أصحابه . وإن الواقع العملي للقوم يكشف عن مثل هذا التورط . ومعنى الآية « أفاد أن السحت أعم من الرشوة ومن فسره بالرشوة المطلقة أو المقيدة فقد أراد به أن المراد من الآية باعتبار نزولها في أحبار اليهود ورؤسائهم لا المعنى اللغوي العام .وقيل السحت الحرام مطلقا أو الربا أو الحرام الذي فيه عار ودناءة كالرشوة »[1].

وأورد الرازي في تفسيرها أقوالا منها « قال الحسن كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه من كان مبطلا في دعواه برشوة سمع كلامه ، ولا يلتفت إلى خصمه ، فكان يسمع الكذب ويأكل السحت .الثاني قال بعضهم كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالا ليقيموا على ما هم عليه من اليهودية .فالفقراء كانوا يسمعون أكاذيب الأغنياء ويأكلون السحت . الثالث :سماعون للأكاذيب التي كانوا ينسبونها للتوراة .»[2].

ولا شك أن هذا الدليل القرآني لا يتم إلا إذا كان للقوم علم في كتبهم بهذا التحريم ، والذي منه الرشوة والسرقة والخيانة ، ومعلوم جدا أن هذا المقدار من النهي موجود حتى في ما يصفه القرآن بأنه محرف من كتبهم.

ويضيف قوله تعالى﴿ولا تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا﴾ أنهم وخصوصا الأحبار والرهبان كانوا يتاجرون بالدين وبأحكام الشريعة ، وهذا واسع الاحتمال ربما في الفتاوى يتقربون بتغييرها للحكام والأغنياء ، أو بأخذ الأجر على تحليل الحرام أو تحريم الحلال أو كان ذلك بكتب يكتبونها يزعمون أنها من عند الله ثم يأخذون من الناس أجرا مقابل تمكينهم منها.

---

[1] –تفسير المنار ، محمد رشيد رضا .392/6.

[2] –التفسير الكبير ، الفخر الرازي .235/11.

والمهم في ذلك كله انه ليس في قلوبهم من تعظيم الشرائع شيء، فهذه المحرمات ينتهكونها عموما ، والقرآن يذكر الأحبار والرهبان بالتحديد لعظم ذلك منهم . ثم لم يبق لهم من الدين إلا الرسوم ما داموا يهملون الواجبات وينكرون المبشرات ويفترون على الله الكذب كما يتمسكون بمفتريات أجدادهم على الله ورسله وكتبه .

وهذه الأشكال الدينية ليست هي المانع الأول من الإيمان بالإسلام بل هو الهوى والحرص على المكانة والحسد والداء القديم وسابق اللعنة الإلهية خصوصا اليهود إذ رغم عشرات السنين من التواجد في المدينة ومن وضوح شواهد الحق ومع ذلك لا يستفيدون من الأمر شيئا ، حرصوا على الضلال فبقي فيهم لا يغادرهم. في حين أن وفود النصارى لم يعلن أكثرها إسلامها ، ودان بالإسلام من لا عهد له بالوحي والرسالة مع تمكن الوثنية من قلوب العرب وغرابة النبوة عندهم .

2- السعي في الأرض بالفساد :

وإن من الحجج التي يدفع بها القرآن في جداله لأهل الكتاب تهمة السعي في الأرض فسادا ، وهذا أمر ينبغي دفعه عن النفس خصوصا، وأنهما أهل أقدم الديانتين ، والكتب متواجدة والأحبار والرهبان متكاثرون ، مع وفرة الأنبياء ووضوح المعالم والعلم بالمحرمات وسعي كل فريق للانتساب إلى الله ولاية ومحبة .

فكيف يليق بمن معهم ميراث أن يستووا مع المجرمين والجبارين والباغين في الأرض فسادا لا شك أن القضية جوهرية ومتأصلة فيهم وستدوم عندهم وذلك قول الله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] .

وفي أيام البعثة ألبوا على الرسول قبائل العرب في غزوة الأحزاب 05هـ ، ونقضوا بذلك عهده ، ولجوا في إلقاء الشبهات بين المؤمنين ، وسجل عليهم القرآن سعيهم في سبيل رد المسلمين عن دينهم وكفى بذلك فسادا في الأرض ﴿يا أيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وهو تجسيد عملي لهوى قديم سكن القلوب كما في قوله تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق إن الله على كل شيء قدير﴾ .

ولعل البحث في بعض ألفاظ هذه الآية يظهر دقة القرآن في التعبير عن بعض الحقائق التي جابه بها خصومه من أهل الكتاب ساعة المحاجة ، ففي مفردة ﴿ ود﴾ نجد كما قال الراغب:« الود محبة الشيء وتمني كونه »[2]. وذلك إخبار عما هو مستقر في نفوسهم من تمني ومحبة أن يرتد المؤمنون إلى ما كانوا عليه من الكفر ، إذ لا يهم عندهم أن يتبعوا اليهودية أو النصرانية ، وما هم عليه من الدين ، بل المهم أن يفارقوا الإسلام ولو إلى الكفر الأول ، وهذا نهاية فضح جرائمهم في حق الإيمان وعهد الأنبياء بدعوة الناس إلى الإيمان الحق.

---

[1] الآية 64 سورة المائدة .

[2]- معجم مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصبهاني 588.

كما نجد التعبير بالفعل ﴿يردونكم﴾ فقد قال الراغب يردونكم « أي يرجعونكم إلى حال الكفر بعد أن فارقتموه »[1]. وفيه دلالتان :

الأولى : إفادة الاستمرار على فعل الرد ، والتمادي عليه ..

الثاني : سعيهم في رد المؤمنين عن دينهم ، فلم يقع التعبير ، لو ترتدون عن دينكم ، بحيث لا يكون لأهل الكتاب مدخل في الردة غير التمني بالقلب ، بل تعدى الأمر إلى السعي في ذلك ، وفيه فضح سعيهم المستمر ، بصيغة الفعل المضارع المسند إليهم .

وإيراد عبارة ﴿كفارا﴾ وهي « حال من ضمير المخاطبين » وهو « يفيد مقارنة الكفر بالرد فيؤذن بأن الكفر يحصل بمجرد الارتداد مع قطع النظر إلى ما يرد إليه »[2] .

فتبين من هذه العبارة أن السعي كان في ارتداد المؤمنين إلى الكفر لا إلى ديانة أهل الكتابين كما هو المنطق على الأقل عند علمائهم .

و كشف لفظ ﴿حسدا﴾ تعليل هذا الوداد ، والسعي في الارتداد أنه لا سبب له معقول كقيام شبهة أو بطلان ديانة الإسلام بالأدلة الواضحة على الأقل عندهم ، بل وراء ذلك سبب واحد هو الحسد لا غير ، وفي هذا كشف لما استقر في قلوبهم وحجة زائدة بين يدي الرسول عليه السلام ، فليس بإمكانهم تكذيبه ؛ ولهذا فـ « ﴿ **حسدا** ﴾ حال من ضمير ود أي أن هذا الود لا سبب له إلا الحسد لا الرغبة في الكفر »[3] .

وأما عبارة « ﴿من عند أنفسهم﴾ جيء فيه بمن الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم ، وأكد ذلك بكلمة عند الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكنه »[4] .

والآية ختمت بفاصلة مناسبة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ وهي « تذييل مسوق مساق التعليل »[5]. فهذا السعي والمكر المتكرر من عندهم ، اتجاه المؤمنين ، تقابله قدرة الله على إبطال كيدهم ، وتخييب سعيهم ..

---

[1] – معجم مفردات القرآن . المصدر السابق / 217.

[2] – روح المعاني . الألوسي 1 /365.

[3]- التحرير والتنوير . ابن عاشور 670/1.

[4]- المرجع نفسه . 670/1.

[5]- المرجع نفسه . 671/1..

والتاريخ شاهد بسعي أهل الديانتين خصوصا اليهود فسادا في الأرض بإشعال الحروب والتخطيط للانقلابات ، والمشاركة في الأزمات السياسية والاقتصادية ، وإشاعة الإباحية والمذاهب الإلحادية ..مما يضيق عن شرحه المقام . وقد تولى علماء الإسلام والمفكرون المحدثون التفصيل فيه (الأفعى اليهودية)،(بروتوكولات حكماء صهيون).. (والشخصية اليهودية)، وشاهد ذلك أيضا ما كتبه ويكتبه الأوربيون والمفكرون من جنسيات مختلفة

ففي جانب العرب قديما : «كانوا حريصين على استمرار إضعاف القبائل العربية ؛ ولذلك كانوا دائما حريصين على استمرار الحروب بين الأوس والخزرج ، وكلما أوشكت الحرب أن تخمد أشعلوها ، وكلما أوشكت القبيلتان على الإتفاق ذكروهما بما بينهما من عداء وبضرورة أخذ الثأر . ولقد كانت كل الحروب الدامية بين الأوس والخزرج والتي دامت عشرات السنين من تخطيط اليهود ، وهذا علو وفساد . »[1].

وهو نفس ما يتكلم به مفكرون غربيون يؤكدون العداء المستحكم من اليهود لغير اليهوديين من وجهة نظر دينية يقدسونها ويرونها من لب الدين ينشئون عليها الأجيال المتلاحقة ، ويجعلون لها سندا دينيا من أنهم (شعب الله المختار) وغيرهم من الأمميين ليسوا مثلهم ؛ ولأنهم يخرجونهم وبنصوصهم الدينية التي يعتقدون صحتها عن دائرة البشر فضلا عن إقرار المساواة معهم .ولذلك يغطون ما يقومون به في العام بالصبغة الشرعية التي يتداولونها بينهم ، ومن أجلها يسعون في دأب لحكم من يحيط بهم من الأمم إن لم يكن مباشرة فلا أقل من التوجيه الذي يضمن لهم حماية مصالحهم .

وبالبحث نجد في أسفار التوراة سندا قويا لهذا السلوك العنصري « **11** احفظ ما أنا موصيك اليوم ها أنا طارد من قدامك الاموريين و الكنعانيين و الحثيين و الفرزيين و الحويين و اليبوسيين* **12** احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصيروا فخا في وسطك* **13** بل تهدمون مذابحهم و تكسرون أنصابهم و تقطعون سواريهم ». **سفر الخروج 34/11-13.**

---

[1] – الشخصية اليهودية صلاح عبد الفتاح الخالدي .شركة الشهاب–الجزائر– ط : 1 .1987. /234.

ومصداق هذا النص نجده زمن النبوة، يوم لم يكن اليهود يقفون عند معاهدة، ولا ميثاق كما هو مذكور في السيرة النبوية ، ونجد اليوم أن من هذا النص يأخذ اليهود في إسرائيل اليوم خطتهم في عدم إجراء أي معاهدة سلام تسمح بموجبها بقيام كيان لسكان فلسطين ..[1]

وهذه الظاهرة هي ما يعرف بالعداء للسامية قديما وحديثا « وقد ظهرت نظرية يهودية أخرى تدعي أن العداء للسامية مرض وهي بالتحديد مرض عقلي لقد ندر أن ظهر في التاريخ تصور أكثر زيفا وعجرفة من البيان القائل أن المعاداة للسامية مرض ، وهذا الإدعاء في جوهره إنما يدعي كذلك الكمال اليهودي والفضيلة اليهودية والتفوق ، بينما يحيل الكافرين باليهودية ومن ينتقد أهلها إلى المستشفى الأمراض العقلية . »[2].

يبين القرآن أصل هذا الخلل في التصور عند الخصوم في قوله على لسانهم ﴿ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[3] فالقرآن يرد عليهم لأن ذلك أولا غرور لا مبرر له من مزاياهم الذاتية والتاريخية . وثانيا كذب لأنهم ينسبونه للدين والنصوص الدينية. وهي منه براء .

ورغم أن اليهود ينكرون هذه النزعة التي يكشفها القرآن وتتجسد في التاريخ إلا أن الأمر سيظل رهن رصد السلوكات المعلومة عند الأمم ، ثم مقارنتها بغيرها مما للأمم الأخرى لملاحظة مدى براءة القوم مما ينسبه إليهم التاريخ « لقد كانت تصرفات الشعوب وتصرفات الناس في كل الأزمنة متقاربة ، وطبيعتهم واحدة ، ولا يوجد دليل يثبت أن الناس في هذا الزمان أسوأ كثيرا ممن قبلهم في العصور الماضية . فالرحمة والكرم والتواضع صفات متوارثة تنتقل من جيل لآخر ، وكذلك الطيبة لا تلد إلا طيبة ..أما إذا حدثت دائما كراهية عالمية أو عدم ثقة باليهود فمن الضروري التفتيش عن سبب لذلك ، ومن غير المعقول الاعتقاد بأن اليهود كانوا السبب في ذلك دائما لمجرد أنهم يهود فقط. »[4] .

وبإبراز هذا الخلل في الفكر وما يستتبعه من العمل السقيم يعطي القرآن التفسير لما يشهده التاريخ من طبيعة اليهود وما يتذرعون به إلى أهدافهم سواء في نيل المطالب الفردية أو إنشاء الوطن القومي لهم .

---

[1] – الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم . د .محمد علي البار .دار القلم .بيروت .ط:01. 1990./275.

[2] – الأخوة الزائفة . جاك تني ، ترجمة :أحمد اليازوري . مؤسسة الرسالة –لبنان–ط:4. 1986 . /50.

[3] – الآية 75 سورة آل عمران .

[4] – الأخوة الزائفة ./ 48.

الخاتمة.

أهـم نتائج البحث :

يحسن بنا بعد تمام هذه الفصول أن نلخص أهم ما توصل إليه الباحث، مما كان يهدف إليه؛ لما للموضوع من أهمية بالغة في الواقع العملي، ونحن نجابه أتباع هاتين الديانتين على أكثر من صعيد، وتتقاطع بيننا وبينهم المواقف،والمصالح على أوسع مجال :

1- شرعية حوار وجدال أهل الكتاب بالأدلة المستفادة علميا وعمليا من آيات الكتاب العزيز توصلا إلى تعريفهم بمعالم الدين الجديد ، بواسطة من يحسنون عرضه من أبنائه ، والمنتمين إليه، لا من المغرضين منهم من مثل كثير من المستشرقين ، والمفتونين بهم ممن يحسبون على هذا الدين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران**64** .

2- دلالة أهل الكتاب – عن طريق الجدل الحق – على كثير من مواطن الخلل في أديانهم وكتبهم بوساطة ما دل عليه الوحي القرآني، وما يستفاد بأحد مقتضيات الاستفادة.ما كان منها مباشرا أوْ كان غير مباشر. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾النمل**76** .

3- شرعية الشدة على المبطلين من أهل الكتاب ﴿*ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم*﴾ والسعي إلى فضح كذبهم وكفرهم على رؤوس الأشهاد فهو منهج القرآن ما داموا لا غرض لهم من البحث غير التحامل على الإسلام و أهله .كما في قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾المائدة**73**، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة13.

4- شرعية الاحتجاج على أهل الكتاب من كتبهم، وشرائعهم ولو باعتبار ما وقع فيها من التحريف ما داموا يولونها التصديق وبما يظهرونه من ذلك أمام الناس . فهذا القرآن يردهم إلى ذلك في أحسم موقف كذب وتكذيب يصدر منهم ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ آل عمران 93 .

5- شرعية كشف الخلل الواضح،والجوهري في الموروث من الديانتين،وما يقع فيه المبطلون من فساد التدين، والمخالفة لتعاليم كتبهم؛ كل ذلك توصلا إلى كف أذاهم عن الإسلام والمسلمين **أولا** ، ثم محافظة **ثانيا** على ما فيها من الحق ما دام سيستمسك بها أمم كثيرة ممن سوف لا يؤمنون بالقرآن، ويكون لهم وزن في سير الحياة ، وهو بميزان القرآن خير من اتباع الوثنية .

6- الكشف عن فنيات القرآن البلاغية، وهو يخاطب خصومه من أهل الكتاب في أشد مواطن الخصومة ، وتوظيف كل ذلك في الخطاب الإسلامي، تكثيفا لعناصر الفعالية فيه ، من جهتي القالب والمضمون معا . نلاحظ ذلك من خلال شيوع أسلوب الاستفهام بأبرز أغراضه من استنكار ، وتعجب ، وتوبيخ ..وأسلوب التعقيب بالفاصلة المتممة للمعنى السابق ، و المؤكدة له، والتعبير بالمضارع ، والجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والدوام على الحال ..

7- فعالية ما يوظفه القرآن من مناهج الاستدلال على القضايا بحل المحاجة من أقيسة صحيحة ، ومسلمات عقلية ، هي من قبيل المعارف الأولية في الذهن ، وبرهان الحس والمشاهدة العصي على كل إنكار ، إلا أن يكون مكابرة في وجه الدليل ...

فهرس الآيات القرآنية

	السورة	الصفحة
-﴿ولا تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . ﴾	البقرة	115.136 . 57
-﴿وإذ اخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . ﴾	البقرة	122 . 115 . 57
-﴿إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ﴾	البقرة.	105 . 103
-﴿أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل اكثرهم لا يومنون . ﴾ .	البقرة.	124 . 122 . 47
-﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ﴾	البقرة	138 . 99 . 47
-﴿الذين ءاتيهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . . ﴾	البقرة	97 . 96 . 95
-﴿سيقول السفهاء ما وليهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . . ﴾	البقرة	100 . 98
-﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾	البقرة	101 . 98
-﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل ءادم خلقه من تراب . . ﴾	آل عمران	77 . 51
-﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك ن العلم فقل تعالوا . . ﴾	آل عمران	108 . 04
-﴿ولا تومنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله . . ﴾	آل عمران	102
-﴿ ومن أهل الكتاب من ان تامنه بقنطار يوده إليك . . ﴾	آل عمران	15 . 11
-﴿ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب ﴾	آل عمران	141 . 15 . 11
-﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . . ﴾	آل عمران	132 . 103 . 19
-﴿قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن . ﴾	آل عمران	129 . 126 . 11
-﴿ إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم ﴾	آل عمران	138 . 14
-﴿وإذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيينه للناس . . ﴾ .	آل عمران	124 . 122 . 68
-﴿ سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم . ﴾	النساء	102 . 73
-﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . . ﴾	النساء	103
-﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه . . ﴾	المائدة	179 . 33 . 18
-﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمومنون يومنون بما أنزل إليك . . ﴾ .	المائدة	97

-﴿سماعون للكذب أكالون للسحت..﴾	المائدة	136
-﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه..﴾	المائدة	117 . 63
-﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة..﴾	المائدة.	117 . 52
-﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم.﴾	المائدة.	76
-﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا..﴾	المائدة.	51 . 18
-﴿وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾	المائدة .	135 . 134
-﴿يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ﴾	المائدة.	143 . 73
-﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني..﴾	.الأنعام.	05
-﴿وتلك حجتنا ءاتيناها إبراهيم على قومه..﴾	الأنعام	05
-﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾	الأنعام	82
-﴿وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته..﴾	الأنعام.	133
-﴿إنا هدنا إليك..﴾	الأعراف.	15
-﴿الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل الأعراف .		66 . 44
-﴿إن كنتم ءامنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مومنين..﴾ ...	الأعراف	117
-﴿ألم يوخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق..﴾	الأعراف	123 . 122
-﴿وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ﴾.	التوبة:	118 . 33 . 19
﴿إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾	التوبة :	131 . 73
-﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يومنون ﴾	التوبة.	124
-﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار﴾	طه	118
-﴿إني أسلمت مع سليمان لله رب العالمين..﴾	.النمل.	117
-﴿إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت.﴾ ...	.الجمعة	106
-﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين.﴾	البينة	119

- " أنا أولى الناس بابن مريم . الأنبياء أولاد علات . وليس بيني وبينه نبي " . 16 .

- " افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقةً، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين "وسبعين فرقةً، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة . 25

- " جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله سبحانه يبغض الحبر السمين ، وكان سمينا فغضب ، وقال ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه ويحك ولا موسى ؟ . 147 .

- « جاء راهبا نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم.فقال لهما : أسلما تسلما . فقالا : قد أسلمنا قبلك . قال:كذبتما ؛ يمنعكما من الإسلام سجودكما الصليب وقولكما اتخذ الله ولدا وشربكما الخمر فقالا ما تقول في عيسى ؟ قال فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . .﴾ فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاعنة وجاء بالحسن والحسين وفاطمة وأهله وولده عليه السلام ، قال فلما خرجا من عنده قال أحدهما لصاحبه :أقرر بالجزية ولا تلاعنه ، فأقر بالجزية قال : فرجعا فقالا : نقر بالجزية ولا نلاعنك ». 110 .

فهرس الأعلام :

أحمد عبد الحليم بن تيمية 39

أحمد مصطفى المراغي 97

ابن منظور 04

الخطيب القزويني . 74

رحمة الله خليل الرحمان اله 67 . 21

محمد أبو زهرة 35 . 59 . 121 .

محمد بن جرير الطبري 119

محمد بن أحمد بن جزي 114

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني . 22 . 20

محمد عزة دروزة . . 143

محمود بن عمر الزمخشري . 124 . 82 59

محمد الطاهر بن عاشور . 127 . 85.104

محمد رشيد رضا 94 . 45

محمد عبده 45 . 35

محمد التومي . 08 . 06

محمد حسين فضل الله . 130 . 111 . 84 . 56.78 . 45

عادل نويهض 36 . 07 .

عماد الدين إسماعيل بن كثير 130 . 123 . 92 . 89

عباس محمود العقاد . 92

عبد الله بن عباس . 123 . 86 . 83
عبد القاهر الجرجاني . 85
علي شيري . 07
سهيل الديب . 17 . 15
سيد قطب . 97 . 92 . 46
شارل جنبير . 24
شمس الدين بن قيم الجوزية . 65 . 39
فخر الدين الرازي . 137 . 87 . 77
الفضل بن الحسن الطبرسي . 135
صبحي صا 16
يحي بن حمزة العلوي . 63

فهرس المراجع :

1-الإتقان في علوم القرآن .

جلال الدين السيوطي (تـ911هـ). دار الفكر . بيروت . بدون تاريخ .

2- الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة .

محمد بن إدريس القرافي. دار الكتب العلمية-لبنان .ط:01، 1986 .

3-الأخوة الزائفة .

جاك تني . ترجمة :أحمد اليازوري .مؤسسة الرسالة -لبنان-ط4 ،1986.

4-أدبية الخطاب القرآني .

سليمان عشراتي .رسالة دكتوراة . معهد اللغة العربية-جامعة وهران .1991.

5- أسباب النزول .

علي بن أحمد الواحدي .دار الكتب العلمية-لبنان. ب-ت)

6-أسرار البلاغة في علم البيان .

عبد القاهر الجرجاني. دار المعرفة .بيروت. بدون تاريخ .

7-الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية .

محمد عبده . دار الحداثة-بيروت-ط:02. 1983.

8-الإسلام ومستقبل الحضارة .

صبحي صالح .دار الشورى -بيروت - ط:01 .1982 .

9-أضواء على البحث والمصادر .

الدكتور عبد الرحمان عميرة . دار الجيل .ط:04. 1986.

10-إظهار الحق .

رحمة الله خليل الرحمان الهندي .دار الجيل -بيروت- بدون تاريخ) .

11-إعداد البحث العلمي .

دكتور غازي عناية .دار الشهاب . باتنة - الجزائر -ط: 01 .1992.

12-إعراب القرآن وبيانه .

محي الدين الدرويش . دار الرشيد -سوريا- الطبعة الثانية ،1983.ثلاثة أجزاء .

13-الإنسان في القرآن الكريم .

محمد زعراط. مخطوط دكتوراه . معهد اللغة العربية -جامعة وهران-**1998**م .

14-الإيضاح في علوم البلاغة .

الخطيب القز ويني. دار الكتاب اللبناني -بيروت-الطبعة **06-1985**

15-**التحرير والتنوير**

الطاهر بن عاشور.المؤسسة الوطنية للكتاب،الدار التونسية للنشر.الجزائر،تونس. **1984** .

16-التسهيل لعلوم التنزيل .

ابن جزي الكلبي .الدار العربية للكتاب -بيروت-بدون تاريخ.

17-تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار .

محمد رشيد رضا.دار المعرفة .لبنان. ط: 2 (ب.ت)

18-تفسير القرآن العظيم .

عماد الدين بن كثير .(دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت- ط**6** ،**1984**.)

19-التفسير الكبير .

فخر الدين الرازي .دار إحياء التراث العربي -بيروت-ط**3**،بدون تاريخ.

20-تفسير المراغي .

مصطفى المراغي .مكتبة مصطفى البابي الحلبي . مصر . ط : **02** . **1953**.

21-التفكير فريضة إسلامية

عباس محمود العقاد (مكتبة رحاب-الجزائر- بدون تاريخ)

22-التوراة بين الوثنية والتوحيد .

سهيل الديب .دار النفائس -بيروت-ط :**02**،**1985**.

23-التوراة تاريخها وغاياتها .

سهيل الديب (دار النفائس -لبنان-ط6، 1986).

24-جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

محمد بن جرير الطبري. دار الفكر -لبنان- **1984**.

25-الجدل في القرآن الكريم .

محمد التومي . شركة الشهاب -الجزائر- بدون تاريخ.

26–حكمة الأديان الحية .

جورييف كايير ، تـــ: حسين الكيلاني (مكتبة الحياة –بيروت–(بدون تاريخ)

27–حوار أم جدل .

محمد معروف .مطبعة الشروق –الجزائر–ط:**01،2002**.

28–الحوار في القرآن الكريم .

محمد حسين فضل الله .دار المنصروي –الجزائر–بدون تاريخ.

29–دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية .

سعود بن عبد العزيز الخلف (أضواء السلف –السعودية– ط:**01 –1997**)

30–دراسات في علم الكلام والفلسفة .

يحي هويدي .دار الثقافة للنشر .مصر .**1979**

31–الرسالة القبرصية .

أحمد عبد الحليم بن تيمية. تـــحقيق :علاء دمج .دار بن حزم –بيروت–ط: **1997،03**.

32–روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .

شهاب الدين الألوسي .دار إحياء التراث . بدون تاريخ .

33–سيرة الرسول .

محمد عزة دروزة .(مطبعة عيسى البابي الحلبي –القاهرة–ط **2،1965**.)

34–السيرة النبوية .

عبد الملك بن هشام .مكتبة الرياض الحديثة .(بدون تاريخ)

35–المسيحية –نشأتها وتطورها .

شارل جنبيير .منشورات المكتبة العصرية–بيروت–(بدون تاريخ)

36–الشخصية اليهودية.

صلاح عبد الفتاح الخالدي.شركة الشهاب–الجزائر–ط**1 –1987**.

37–الضوء المنير على التفسير .

جمع علي الحمد المحمد الصالحي. (مؤسسة النور للطباعة والتجليد ومكتبة دار السلام –الرياض–ب ت) .

38-الضوء المنير على التفسير.

علي الحمد المحمد الصالحي .مؤسسة النور للطباعة والتجليد /مكتبة دار السلام -الرياض- بدون تاريخ .

39-العقيدة في الله .

عمر سليمان الأشقر .قصر الكتاب البليدة-الجزائر-**1990**.

40-الفاصلة القرآنية .

عبد الفتاح لاشين .دار المريخ-الرياض - **1982**.

41- فتح القدير .

محمد بن علي الشوكاني . دار المعرفة بيروت لبنان ط: **03. 1997** .

42-فجر الإسلام .

أحمد أمين (دار الكتاب العربي -بيروت- ط:**10. 1969**).

45-الفصل في الملل والنحل .

ابن حزم . دار الجيل . لبنان .**1985**.

46-الفكر الإسلامي في الرد على النصارى.

عبد المجيد شرفي. الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب -تونس ، الجزائر-**1989**.)

47-فكرة إعجاز القرآن .

نعيم الحمصي .مؤسسة الرسالة -دمشق-الطبعة الثانية ،**1977**.

48-في ظلال القرآن .

سيد قطب (دار الشروق -لبنان-ط:**09. 1980**.

49-في علم الكلام (المعتزلة).

أحمد محمود صبحي(دار النهضة العربية-بيروت-ط**05**،**1985**).

50-القرآن والمبشرون .

محمد عزة دروزة .(المكتب الإسلامي -بيروت- الطبعة الثالثة ،**1979**.

51-كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز .

يحي بن حمزة العلوي (دار الكتب العلمية -لبنان- بدون تاريخ).

52-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه الـــتأويل .

جار الله الزمخشري (دار المعرفة لبنان (بدون تاريخ)

53-لسان العرب .

ابن منظور. تـــ:علي شيري .دار إحياء التراث العربي –بيروت–ط**01 - 1988**.

54-الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم .

د .محمد علي البار .دار القلم .بيروت .ط:**01. 1990** .

55-مجمع البيان .

الفضل بن الحسن الطبرسي .' دار مكتبة الحياة –لبنان– (بدون تاريخ) .

56-محاضرات في النصرانية .

محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي –القاهرة– ط:**3**، (بدون تاريخ)

57-مختصر تفسير ابن كثير .

محمد علي الصابوني . دار القرآن الكريم . بيروت . ط : **07. 1981** .

58-مدخل لدراسة التوراة والعهد القديم .

محمد علي البار.دار القلم .سوريا.ط**1. 1990**.

59-مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم .

محمد خليفة حسن أحمد .(ب،د . القاهرة ، **1996** .

60-المسيحية والاسلام والاستشراق .

محمد فاروق الزين (دار الفكر ، دمشق ، ط :**01** ، **2000**)

61-المسيحية.

تأليف شارل جنبيير،ترجمة:عبدالحليم محمود.منشورات المكتبة العصرية .بيروت . (بدون تاريخ)

62-مصادر التوراة .

عبد المجيد همو .مركز غار حراء .دمشق.ط:**01-1999**.

63-المعجزة الكبرى القرآن .

محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي –القاهرة–**1977**.

64-معجم المفسرين .

عادل نويهض . مؤسسة نويهض الثقافية –لبنان– ط:**1**، **1984**. جزآن .

65-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

محمد فؤاد عبد الباقي.دار الأندلس.بيروت.(بدون تاريخ).

66-معجم مفردات ألفاظ القرآن .

الراغب الأصفهاني. ت: إبراهيم شمس الدين .دار الكتب العلمية -لبنان- ط1. **97)**

67-مفاتح الغيب .

فخر الدين الرازي (دار إحياء التراث العربي —بيروت-بدون تاريخ-).

68-مفتاح كنوز السنة .

الدكتور أ.ي.فنسنك .ترجمة /محمد فؤاد عبد الباقي .دار إحياء التراث العربي .بيروت .**1983**

69-المقدمة .

عبد الرحمان بن خلدون .دار العودة —بيروت- بدون تاريخ .

70-الملل والنحل .

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني . دار الكتب العلمية —بيروت- لبنان. (بدون تاريخ)

71-من أسرار البلاغة في القرآن .

محمود السيد شيخون . مكتبة الكليات الأزهرية -القاهرة-الطبعة الأولى ، **1984**.

72-المنجد في اللغة والأعلام .

مجموعة مؤلفين . منشورات دار المشرق —بيروت-ط:**31** ، **1991**.

73-منهج البحوث العلمية .

ثريا عبد الفتاح ملحس.دار الكتاب اللبناني—لبنان)ط**1**. **1960**

74-المنهج العلمي في البحث الأدبي .

حامد حفني داود .ديوان المطبوعات (الجزائر)**1983** .

75-الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية .

عبد المنعم حنفي .(دار المسيرة -بيروت- ط : **1- 1980**.).

76-النصرانية من التوحيد إلى التثليث .

محمد أحمد الحاج .دار القلم ،الدار الشامية —سوريا،لبنان —ط:**01-1992**.

77-نظرات في القرآن .

محمد الغزالي . دار الشهاب . الجزائر . (بدون تاريخ)

78 – نقد أسفار التوراة –أسفار موسى الخمسة .

دكتور أحمد حجازي السقا . دار الجيل –بيروت – ط:**01** . **1995**.

79–نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز.

فخر الدين الرازي.تحقيق : ابراهيم السامرائي و محمد بركات حمدي . دار الفكر للنشر والتوزيع –الأردن–**1985**.

80–هداية الحيارى في الرد على أسئلة اليهود والنصارى .

ابن قيم الجوزية (751هـ).دار المسيرة .(ب–ت)

81–الهدى إلى دين المصطفى .

محمد جواد البلاغي .دار الكتب الإسلامية – إيران –(بدون تاريخ)

فهرس الموضوعات

مُقَدِّمَة: أ

الفصل الأول: القرآن الكريم وأهل الكتاب 02

المبحث الأول : مفهوم المحاجة والجدل في اللسان العربي واللسان القرآني 04

المبحث الثاني : مفهوم أهل الكتاب في القرآن الكريم 09

أولا-اليهود: 17

أ- مجمل الديانة اليهودية: 20

ب-أهم الفرق في الديانة اليهودية : 24

1-الصدوقيون : 25

2- الفريسيون: 27

3-السامريون : 28

ج-تواجد الديانة اليهودية بأرض العرب: 30

ثانيا-النصارى: 31

أ-مجمل الديانة النصرانية: 33

ب-أهم الفرق النصرانية: 36

1-النسطورية : 37

2-الملكانية: 39

3-اليعاقبة: 40

ج-تواجد النصارى بأرض العرب: 41

المبحث الثالث :موقف أهل الكتاب من القرآن 42

المبحث الرابع : موقف القرآن من أهل الكتاب 47

الفصل الثاني : القرآن ومحاجة أهل الكتاب بالدليل العلمي . 55

المبحث الأول :إحتجاج القرآن بنصوص التوراة والإنجيل: 56

1-توحيـــــــد الله: 57

2- عبودية المسيـــــح : 61

3- بشارة التوراة والإنجيل بمحمد ﷺ: 66

المبحث الثاني :الاحتجاج عليهم بمناقضة مقتضى الدليل العقلي : 72

1-صـــــــدق القرآن :

2-بشرية عيسى ونفي ألوهيته: 75

3- دعوى محبة وولاية الله لهم : 80

4-إنكار الوحي بالقرآن لمحمد ﷺ: 83

5-أمر الناس بالبر والمخالفة إلى غيره : 86

6-تجزئة الإيمان بالرسل والكتب : 91

المبحث الثالث :الاحتجاج على أهل الكتاب بمناقضة دليل الحس والمشاهد 97

1ـشهادة بعض الكتابيين على صدق الرسول: 97

2- إخبار القرآن بما في نفوسهم : 100

3-تحديهم بطلب الموت دليلا على الصدق: 106

4- مباهلة المكذب : 110

الفصل الثالث : الاحتجاج على أهل الكتاب بدليل الإيمان. 116

المبحث الأول :الاعتداء على حقوق الله ومواثيقه . 118

1-ترك عهد الله بالتوحيد. 118

2- مناقضة عهود الله ومواثيقه : 125

المبحث الثاني :الاحتجاج بالاعتداء على حق الرسل والوحي . 129

1-الصد عن سبيل الله: 129

ب- تحريف الكتب : 135

المبحث الثالث :الاحتجاج بالاعتداء على حق الناس . 138
1-أكل أموال الناس بالباطل : 138
ب- السعي في الأرض بالفساد : 141
الخـــــاتمـــــــــة . 142
فهرس الآيات القرآنية : 144
فهرس الأحاديث النبوية . 146
فهرس الأعلام 147
مراجع البحث : 149
فهرس الموضوعات : 156